دَعْوة أهل السُّنة والجمَاعة
(على طريق إحياء الأمَّة)

أصل الدين

عند الأئمة وسلف الأمة

تأليف فضيلة الشيخ

عبد المجيد يوسف الشاذلي

الطبعة الإلكترونية الأولى

2007

http://www.alshazly.org

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ (1).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾(2).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ (3).

أما بعد:

يقول الإمام ابن تيمية(4): « إن الله عز وجل خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته، والإنابة إليه، ومحبته، والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به. وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه وتألههم إياه، كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم.

فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال. بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى.

ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ؛ ولهذا كانت: « لا إله إلا الله » أحسن الحسنات، وكان التوحيد بقول: «لا إله إلا الله» رأس الأمر.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 102.
(2) سورة النساء، الآية: 1.
(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 70 – 71.
(4) التوحيد، ص 150.

فأما توحيد الربوبية الذي أقر به الخلق وقرره أهل الكلام، فلا يكفي وحده، بل هو من الحجة عليهم. وهذا يعنى ما يروى: « **يا ابن آدم خلقت كل شيء لك وخلقتك لي. فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له** ». واعلم أن هذا حق الله على عباده: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا ». أ هـ.

ثم يقرر ابن تيمية (1): « ولما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم إلى الإله المعبود، وقصدهم إياه لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة، كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته، وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة والإنابة إليه.

ولهذا إنما بعث الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، الذي هو المقصود المستلزم للإقرار بالربوبية وقد أخبر عنهم أنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ (2).

وأنهم إذا مسهم الضر ضل من يدعون إلا إياه. وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (3)، فأخبر أنهم مقرون بربوبيته وأنهم مخلصون له الدين إذا مسهم الضر في دعائهم واستعانتهم، ثم يعرضون عن عبادته في حال حصول أغراضهم.

وكثير من المتكلمين إنما يقررون الوحدانية من جهة الربوبية، وأما الرسل فهم دعوا إليها من جهة الألوهية.

وكذلك كثير من المتصوفة المتعبدة وأرباب الأحوال، إنما توجههم إلى الله من جهة ربوبيته، لما يمدهم به في الباطن من الأحوال التي بها يتصرفون، وهؤلاء من جنس الملوك، وقد ذم الله ﷻ في القرآن هذا الصنف كثيرًا. فتدبر هذا، فإنه تنكشف به أحوال قوم يتكلمون في الحقائق ويعملون عليها، وهم لعمري في نوع من الحقائق الكونية القدرية الربوبية، لا في الحقائق الدينية الشرعية الإلهية.

وقد تكلمت على هذا المعنى في مواضع متعددة، وهو أصل عظيم يجب الاعتناء به، والله سبحانه أعلم ». أ هـ.

بهذه الكلمات الجامعة والمعاني الساطعة يلخص شيخ الإسلام ﷺ قضية هذا البحث، بل قضية هذا الدين كله من لدن آدم ﵇ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(1) التوحيد، ص 171.
(2) سورة الزخرف، الآية: 87.
(3) سورة لقمان، الآية: 32.

والقرآن كله ـ كما يقرر الإمام ابن القيم رحمه الله ـ يدور حول التوحيد، فآيات القرآن: إما إخبار عن الله وصفاته وخلقه وأفعاله وتدبيره، وإما أمر ونهي وهما من لوازم ربوبيته وقيوميته على خلقه. وإما بيان للثواب بأنواعه وهو جزاء من أطاعه واتبع رسله الذين أرسلهم بشريعته القائمة على توحيده في الألوهية والربوبية، وإما بيان للعقاب بأنواعه وهو جزاء المخالفين لشرعه، وإما إخبار عن أحوال المكذبين الماضين وهو بيان لمن خرج عن مقتضى توحيده وعبادته [1].

فالتوحيد إذن هو لب الإسلام وأساسه، ومنه تنبثق سائر نظمه وأحكامه وأوامره ومناهجه: وكل ما فيه من عبادات وأحكام ترسخه وتقويه وتثبته في قلوب المؤمنين.

ثم إن من مقتضيات توحيد الألوهية ـ في التصور الإسلامي ـ إفراد الله سبحانه بخصائص الألوهية في تصريف حياة البشر، كإفراده سبحانه بخصائص الألوهية في اعتقادهم وتصورهم، وفي ضمائرهم وشعائرهم على السواء.

فكما أن المسلم يعتقد أن لا إله إلا الله، وأن لا معبود بحق إلا الله، وأن لا خالق إلا الله، وأن لا رازق إلا الله، وأن لا نافع أو ضار إلا الله، وأن لا متصرف في شأنه، وفي شأن الكون كله إلا الله، فيتوجه لله وحده بالشعائر التعبدية، ويتوجه لله وحده بالطلب والرجاء والمحبة، ويتوجه لله وحده بالخشية والتقوى.

وكذلك يعتقد المسلم أن لا حاكم إلا الله، وأن لا مشرع إلا الله، وأن لا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون وبالأحياء وببني الإنسان من جنسه إلا الله، فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع، ومنهج الحياة ونظام المعيشة، وقواعد الارتباطات، وميزان القيم والاعتبارات، سواء.

التوجه إلى الله وحده بالشعائر التعبدية، والطلب والمحبة والرجاء والخشية والتقوى، كالتلقي من الله وحده في التشريع والتوجيه، ومنهج الحياة ونظام المعيشة، وقواعد الارتباطات وميزان القيم والاعتبارات، كلاهما من مقتضيات التوحيد ـ كما في التصور الإسلامي ـ وكلاهما يصور المساحة التي تشملها حقيقة التوحيد في ضمير المسلم وفي حياته على السواء.

وبالرغم من وضوح هذه الحقائق في دعوة كل الرسل والأنبياء، إلا أن التحريفات والانحرافات التي وقعت في تصورات أتباع الرسل، وإلى جانب طغيان الجاهليات على

(1) مدارج السالكين.

أتباع الرسالات، لم تبق في الأرض من تصور ديني صحيح، إلا التصور الذي جاء به محمد ﷺ وحفظ الله أصوله، فلم تمتد إليها يد التحريف ولم تطمسها كذلك الجاهليات التي طغت على حياة الناس، ومن ثَمَّ كانت ولا تزال حقائق « التوحيد » هي أبرز خاصية في خصائص هذا الدين.

ولقد عرفت الأرض جاهليات كثيرة، عرفتها في دورات تاريخية مكررة، ففي فترة بعد فترة من تاريخ البشرية كانت تتنزل من الله رسالة، يحملها من عند الله رسول، وكانت كل رسالة تضيء ما حولها، وتقدم للناس الإسلام ممثلا في العبودية لله وحده ! وتقوم على هذا الإسلام جماعة كثيرة أو قليلة ويدمر الله على المكذبين، ويأخذهم بذنوبهم ويخلي وجه الأرض منهم، كما يقص الله سبحانه علينا أمر قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وملئه.

ثم يطول الأمر على الجماعة المسلمة، فتتسرب الانحرافات إلى عقيدتها الربانية: الإسلام، ومن ثَمَّ تمتد إلى واقع حياتها وتظل كذلك حتى تجيء رسالة جديدة، ويجيء رسول جديد بالإسلام، ثم تعقب الإسلام جاهلية أخرى وهكذا.

حتى كانت كلمة الله الأخيرة للبشرية، وكان رسول الله ﷺ خاتم النبيين، وارتفع لواء الإسلام عاليًا وظل مرفوعًا أكثر من ألف عام، بل حوالي مائتين وألف عام، ممثلا في النظام الإسلامي في كل الأقطار الإسلامية، وهو النظام الذي يرجع الناس فيه إلى شريعة الله وحده، ولا يحكم قضاة هذه الأمة إلا بالشريعة الإسلامية في كل أمر من أمور الحياة، ولا يتحاكم الناس إلى غير هذه الشريعة في شأن واحد من شؤون المعاش.

ثم تسربت الجاهلية من جديد، مدفوعا هذه المرة ـ إلى جانب العوامل الداخلية في جسم المجتمع الإسلامي ـ بدافع الغزو الصهيوني والصليبي الظاهر والباطن، الممثل في تنحية شريعة الله عن الحكم، ورد أمر الناس إلى الدساتير والقوانين التي يصنعها البشر ـ للبشر، ثم انتهى الأمر إلى أن تعم الجاهلية وجه الأرض كلها، كما كانت تعم وجه الأرض من قبل في دورات التاريخ المتكررة.

لقد بعدت أكثر المجتمعات الإسلامية عن « التصور الإسلامي للحياة » ومن ثَمَّ بَعُد واقع هذه المجتمعات عن « النظام الإسلامي للحياة ».

ثم إن بُعد حياتها الواقعي عن النظام الإسلامي أخذ بدوره يبعدها عن التصور الإسلامي من جديد.

وهكذا ظلت معظم هذه المجتمعات تدور في هذه الحلقة المفرغة، ويتم في حياتها ذلك التفاعل النكد، بفعل عوامل داخلية كامنة في تركيبها التاريخي من ناحية، وبفعل عوامل خارجية تهاجمها بكل وسيلة وتستغل وتنشئ عوامل التمييع والتمزيق في كيانها من ناحية أخرى، حتى انتهت إلى أن تصبح غريبة غربة كاملة عن الإسلام، تصوره الاعتقادي ونظامه العملي على السواء. وإن ظلت تظن نفسها مسلمة وتدعى لنفسها هذه الصفة، ومن ثَمَّ تؤدي بهذا الادعاء وبواقعها السيئ المتخلف أسوأ شهادة يمكن أن يؤديها فرد أو مجتمع ضد الإسلام !

ولم يعد بعد الرسالة الأخيرة رسالة، ولم يعد بعد محمد ﷺ رسول، فمن إذن لهذه الجاهلية الجديدة التي تسود اليوم؟ من لهذه الجاهلية الممثلة في التحاكم إلى غير شريعة الله، والحكم بغير ما أنزل الله، أو بتعبير آخر: الممثلة في رفض ألوهية الله في الأرض وفي حياة الناس، وفي إقامة آلهة وأرباب أخرى من دون الله.

إن لها حركات البعث الإسلامي التي تجدد للناس أمر دينهم، والتي تعيد إحياء « **التصور الإسلامي** » في قلوب العصبة المؤمنة في الأرض، لكي تعيد على أساسها إنشاء « **الواقع الإسلامي** » من جديد.

ومن هنا تأتى تلك الأهمية البالغة المعلقة على بيان « التصور الإسلامي » وإحياء حقائق هذا التصور في ضمير العصبة المؤمنة في الأرض، وأول وأكبر هذه الحقائق هي حقيقة « التوحيد » الذي هو لب هذا الدين وأساسه وروحه ومقصده.

إنها الأهمية النابعة من استهداف التغيير الكلي الأصلي للحياة البشرية. تصوراتها وقيمها، أنظمتها وأوضاعها، شرائعها وقوانينها، تشكيلاتها التنظيمية في كل حقل من حقول الحياة، مع تغيير أهدافها وغاياتها وبواعثها واهتماماتها، ووسائلها وأدواتها، باعتبار أن إنشاء واقع جديد، رفع كريم، نامٍ متجدد للحياة البشرية لابد أن يسبقه إنشاء تصور جديد يتسم بهذه السمات. ونحن بحمد الله لا نحتاج أن ننشئ اليوم هذا التصور، فقد أنشأه الله، ولكننا نحتاج إلى إحياء مقومات هذا التصور في ضمير العصبة المؤمنة في الأرض وتحويله إلى حركة إيجابية دافعة لا إلى معرفة ثقافية باردة.

إن هذا الواقع الجاهلي الذي يطغى على البشرية اليوم قد نشأ ابتداء من فساد في التصور، عملت فيه جميع القوى وجميع المعسكرات ذات العداء التقليدي للإسلام، ثم هو بدوره يضاعف فساد هذا التصور من جديد، ويضغط بثقله على قلوب الناس في هذه

الجاهلية، ومعه جميع أجهزة التوجيه العالمية فلا تجد هـذه القلـوب في ذاتها مـن التصـور الصحيح ما تدفع به ثقل هذا الواقع فضلا عن محاولة تغييره.

فلابد إذن مـن رواد فـيهم مـن القـدرة والطاقـة، الإدراك والكفايـة، والاسـتعلاء والحماسة، والإصرار والصلابة، بقدر ما فيهم من الإيمان والثقة بهذا الدين ؛ لكي يخلصوا أنفسهم من ضغط هذا الواقع وضغط هذا التوجيه وآثـار هـذا وذاك في التصـور، ولكـي يملكوا ـ على الرغم من الواقع المضلل والتوجيه المضلل ـ أن يروا برؤية واضحة تصـورًا آخر أرفع وأكمل وأعمق حيوية وأكثر طموحًا، من كل التصورات الجاهلية وأن يتحركوا ـ بعد ذلك ـ في وجـه هـذا الواقـع، والتصـورات المصـاحبة لـه، والتوجيهـات المنوعـة الأساليب، لإنشاء واقع آخر.

وما هذا البحث الذي بين أيدينا إلا جهد متواضع للمشاركة في هذه المحاولـة: محـاولــة « إحيـاء حقائـق هـذا التصــور الإسـلامــي»، وهـي محاولــة ولا شــك مرهقـة وشاقـة وهائلـة التضحيـات، ولكنها تستحق ما ينفق فيها من جهد وما يبذل في سبيلها من تضحيات.

فالمرجو اليوم من وراء جلاء هذا التصور مرة أخرى، وإبراز خصائصه ومقوماته ـ كما هي في مصدرها الأول: القرآن الكريم: هو استقرار هـذا التصـور في قلـوب العصـبة المؤمنة في الأرض، وانطلاقه لتحقيق ذاته في صورة واقع بشري، يختلـف اختلافًـا أصـيلًا وكليًا عن كل واقع البشرية اليوم.

والبحث الذي بين أيدينا هذا يركز على أولى حقـائق هـذا التصـور وأكبرهـا وهـي حقيقة « التوحيد » الذي هو أصل هذا الدين ولبه وأساسه الذي يتفـرع منـه سـائر نظمـه وأحكامه وأوامره ومناهجه.

يقول الإمام القسطلاني في شرح البخاري عن « الإيمان »(1):

« إنه أول ما يذكر من المقاصد الدينية لأنه مَلاك الأمر كله، ولأن الباقي منها مبنـي عليه مشروط به. وهو أول واجب على المكلف ».

ثم يقول عنه: « وهو لغة: التصديق. وهـو كـما قـال التفتـازاني: إذعـان لحكـم المخـبر وقبوله. فليس حقيقة التصديق أن يقع في القلب نسبة التصديق إلى الخـبر أو المخـبر مـن غـير

(1) القسطلاني شرح صحيح البخاري.

إذعان وقبول لذلك، حيث يقع عليه اسم التسليم على ما صرح به الإمام الغزالي ». أ هـ.

كلمات الإمام القسطلاني هذه هي المحور الذي يدور حوله موضوع هذا البحث.

فقضية البحث التي نريد إثباتها أو بالأحرى إحياءها هي[1]:

1- أن أصل الدين وحقيقة التوحيد سواء علينا أسميناه الإيمان أو الإسلام أو التوحيد أو الدين أو إفراد الله بالعبادة فمسماه واحد لا يختلف باختلاف الأسماء ؛ وأن هذا الأصل سابق على غيره من التكاليف، وغيره لاحق به ولا يقبل ولا يصح إلا به. فالإيمان أو التوحيد ـ وهما شيء واحد ـ شرط في صحة الأعمال وقبولها.

2- وأن هذا الأصل ذو شقين:

أ- تصديق خبر الرسول جملة وعلى الغيب.

ب- التزام شريعة الرسول جملة وعلى الغيب.

ولا يصح أن نقول: إن من صدق الخبر فقد قبل الحكم. ولا يصح أن نقول: إن المقصود بقبول الحكم هو: الإذعان لأمر الله بتصديق خبر الرسول، وأن من فعل ذلك فقد حقق الإذعان وإن رد أمر الله عليه.

ولكن من الممكن أن نقول: إن من لم يلتزم شريعة الرسول جملة وعلى الغيب لا يعتد بتصديقه للخبر، ولا يعتبر تصديقه تصديقًا صحيحًا ؛ لأنه لو كان كذلك لأداه ذلك إلى قبول الحكم والإذعان له جملة وعلى الغيب.

وعلى كل حال فهما ـ التصديق والالتزام ـ شقان متغايران متكاملان مفهوم أحدهما غير مفهوم الآخر، ولا يقبل أحدهما بدون الآخر.

فمن قال: أصدق الرسول ﷺ ولا أطيعه، أو قال: أطيعه ولا أصدقه ؛ فهو كافر لم يدخل الإسلام ؛ إلا أن يقول: أصدقه وأطيعه.

والباحث في سبيل إحياء هذه الحقيقة وبيانها يلتزم منهجا صحيحًا واضحًا وثابتًا، وهو منهج أهل السنة والجماعة المبني على التقيد بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

---

(1) من الجدير بالذكر هنا أن نوضح أن قضية هذا البحث تدور حول إبراز حقيقة الإيمان أو التوحيد اللازم لكي ينجو به المرء من الكفر والشرك والخلود فى النار. وليس قضيته هى شرح ضوابط إجراء الأحكام المترتبة على تحقق هذا التوحيد أو عدم تحققه فى دنيا الناس فإن مجال ذلك هو كتاب القواعد والفروع الفقهية مما هو خارج نطاق هذا البحث.

وفقه السلف والأئمة رضي الله تعالى عنهم أجمعين ؛ ولـذلك فقـد يلحـظ القـارئ كثـرة النقول عن السلف والأئمة والاستطراد فيها، ولا غرابة في هذا وذلك لأمرين:

أولهما: أن هذه هي طريقة السلف والأئمة أنفسـهم في نقلهـم عـن بعضـهم حفظًـا للمعاني وأمانة للنقل ووضوحًا للأفكار.

والأمر الآخر: أن الباحث أراد أن يوضح للقارئ أن القضية التي يعرضها في بحثـه ليست قضية من ابتكاره أو اختراعه هو ـ ولا مَنْ هو أَجَلّ منه ـ وإنما هي قضية كل السلف والأئمة، بل هي قضية هذا الدين كله من لدن آدم عليه السلام إلا آخر المتمسـكين بهذا الدين، وأن انتشار هذا المعنى وتكرره في كتابات السـلف والأئمـة تجعـل منـه حقيقة مؤكدة وبدهية مستقرة بل هي أولى حقائق وبدهيات هذا الدين.

أمـر آخـر قـد يلحظـه القــارئ وهــو كثــرة النقـل والاسـتطراد عـن شـيخ الإسلام ابن تيمية ـ وتلميذه ابن القيم ـ بالذات، ولا نحسب كذلك أن في هذا غرابة وذلك أيضا لأمرين:

الأمر الأول: أن كتابات شيخ الإسلام في هذه القضية ـ وفي غيرهـا ـ لا يحتـاج إلى كثرة شرح أو مزيد بيان، فهي مـن الوضـوح في المعـاني والقـوة في التعبـير، وكثـرة الاستدلالات والاستفاضة في الاستشـهاد بالنصـوص القرآنيـة والنبويـة وأقـوال السلف، ما لا يحتاج معها إلى إضافة أو تعليق.

الأمر الآخر: أن الظروف والملابسات التاريخية التي عاشها شيخ الإسلام أقـرب ما تكون من الظروف والملابسات التاريخية التي يعيشها كـل مـن يتمسـك بهـذا الدين اليوم ؛ أضف لذلك المواقف العمليـة الجهاديـة التـي خاضـها ممـا أعطـى لكتابات هذا الإمام الجليل وقعًا خاصًا، ورنينًا مميزًا، وتفاعلًا محببًا وشحنًا معنويًا هائلًا لأبناء جيلنا هذا.

فالمحن الداخلية والخارجية التي واجهها هذا الدين في عصر شيخ الإسلام هي من جنس المحن التي نعيشها اليوم: هجمة جاهلية شرسة من الخارج وعمـلاء منـافقون مـن الداخل، ومدارس فلسفية كلامية وأخرى سلوكية صوفية منحرفة ـ تنتسب لهذا الدين ـ وهو منها براء ـ وتنخر في جسم الأمة. كل ذلك يضغط بثقله في اتجاه أن تمحى حقيقة هذا الدين من واقع حياة الناس ابتداءً، ثم من أذهان الجماهير وعقولهم وضمائرهم انتهاءً !

أمام هذا التيار وضده، سبح شيخ الإسلام، وسبح معه كل من أراد لنفسه ولأمته النجاة في الدنيا والآخرة. وبفضل الله وإرادته حافظ هؤلاء الرواد العظام والملاحون المهرة على سفينة أهل الحق في خضم هذا البحر المتلاطم فيهم لا يستمدون إلا من الله وحده ولا يهتدون إلا بهدي محمد ﷺ وحده، نسأل الله أن نكون على دربهم في الدنيا وأن نحشر معهم في الآخرة.

فمن للسفينة الآن ؟ مِنْ غير رواد جدد يسبحون ضد التيار يرجون من الله النجاة لأنفسهم ولأمتهم ؟ مَنْ غير رواد يثابرون ويصابرون، ويتحملون كل تضحية وألم ومشقة في سبيل إحياء حقيقة هذا الدين في أذهان وعقول وضمائر الجماهير ابتداءً، ثم في واقع حياة الناس انتهاءً ؟

نسأل الله ﷻ أن يكون هذا البحث الرائد لبنة صغيرة وجهدًا متواضعًا في سبيل إعادة بناء هذا الصرح العظيم، وأن يكون عملًا مقبولًا خالصًا وصوابًا، خالصًا لوجه الله وحده، وصوابًا على سنة رسول الله ﷺ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباب الأول

مفاهيم أساسية

ويشتمل على خمسة فصول :

الفهرس

الفصل الأول
أصل الدين وخصائصه

• أولًا: هو إفراد الله بالعبادة:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[1]:

« ولهذا لما كان المشركون يحرمون أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، ويأمرون بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان، أنزل الله في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما يذمهم على ذلك، وذكر ما أمر به هو، وما حرمه هو، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [3].

إلى أن يقول: وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [4].

أمر مع القسط:

1- بالتوحيد.

2- الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له.

3- وهذا أصل الدين.

وضده الذنب الذي لا يغفر. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ ﴾[5].

4- **وهو الدين** الذي أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به إلى جميع الأمم:

---

(1) الفتاوى الكبرى جـ1، ص 415. المسألة (232). طبعة دار المعرفة.
(2) سورة الأعراف، الآية: 29.
(3) سورة الأعراف، الآية: 33.
(4) سورة الأعراف، الآية: 29.
(5) سورة النساء، الآية: 48.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [1]. وقال تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [3]، وقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [4]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [5]. إلى أن يقول:

5- **وهو الإسلام العام** الذي اتفق عليه جميع النبيين:

قال نوح عليه السلام: ﴿ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[6]. وفي قصة إبراهيم: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [7]. وقال موسى لقومه: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ [8]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [9]. وفي قصة بلقيس: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [10]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ [11].

وهذا التوحيد هو أصل الدين هو أعظم العدل، وضده وهو الشرك أعظم الظلم، كما

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 25.
(2) سورة الزخرف، الآية: 45.
(3) سورة النحل، الآية: 36.
(4) سورة الشورى، الآية: 13.
(5) سورة المؤمنون، الآيتان:51- 52.
(6) سورة يونس، الآية: 72.
(7) سورة البقرة الآيتان:121- 122.
(8) سورة يونس، الآية: 84.
(9) سورة آل عمران، الآية: 52.
(10) سورة النمل، الآية: 44.
(11) سورة المائدة، الآية: 44.

أخرج الشيخان في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: لما أُنزلت هذه الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ (1)، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال: « **ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم** ». أ هـ.

فالتوحيد الذي هو: إفراد الله بالعبادة هو أصل الدين، وهو الدين وهو الإسلام الذي انعقدت عليه كلمة جميع الرسل إلى جميع الأمم وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم.

- **ثانياً: هو الكلمة السواء التي اتفقت عليها كلمة الأنبياء:**

يقول الإمام ابن كثير (2)في تفسير قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًا ﴾(3):

وهذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من **الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقه في التوحيد**. كما ثبت في صحيح البخاري عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « **نحن معاشر الأنبياء، إخوة لعلات ديننا واحد** »، يعنى بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله. كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (4). وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (5).

وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراما ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس وخفيفا فيزداد في الشدة في هذه دون هذه لما له تعالى من الحجة الدامغة والحكمة البالغة.

قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًا ﴾ (6)، يقول: سبيلًا وسنة ؛ والسنن مختلفة، هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه.

والدين الذي لا يقبل الله غيره: التوحيد والإخلاص لله تعالى، الذي جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام ». أ هـ.

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 82.
(2) تفسير ابن كثير، ج2، ص 66.
(3) سورة المائدة، الآية: 48.
(4) سورة الأنبياء، الآية: 25.
(5) سورة النحل، الآية: 36.
(6) سورة المائدة، الآية:48.

ويقــول الإمــام البيضــاوي[1] في تفســير قولــه تعــالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[2] يقول:

« ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ **لا يختلـف فيهـا الرسـل والكتـب ويفسرهـا مـا بعـدها** ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، ولا نقول: عزير ابن الله ولا المسيح ابـن الله، ولا نطيـع الأحبـار فـيما أحدثوا من التحريم والتحليل ؛ لأن كلا منهم ﴿ بَعْضُنَا ﴾ بشر مثلنا.

روى أنـه لمـا أنزلـت: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[3]، قـال عدى بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله. قال: « **ألـيس كـانوا يحلـون لكـم ويحرمـون فتأخذون بقولهم** ». قال: نعم. قال: « **هو ذاك** ».

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾[4] عن التوحيد ﴿ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[5] أي: لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكـم، أو اعترفـوا بـأنكم كفـرتم بـما نطقـت بـه الكتـب وتطابقت عليه الرسل ». أ هـ.

وهذا التفسير الذي ذكره البيضـاوي، ذكـره أيضًا النسفي والقسطلانى والقرطـبي وغيرهـم.

وحديث البخاري جمع بين الآيتين جمع الاختلاف والاتفاق: « **نحن معاشر الأنبياء أخوة لعلات ديننا واحد** ». فالأخوة لعلات هـم الأخـوة يلتقـون في الأب ويختلفـون في الأمهات. فالرسول الكريم ﷺ شبه الالتقاء في التوحيد بالالتقاء في الأب، والاختلاف في الشرائع التي تتناول الفروع في الدين بالاختلاف في الأمهات.

ثم ذكر أن الدين هو التوحيد ؛ ولذلك كان واحدًا باتفاقه في التوحيد ولم يختلف باختلاف الشرائع ؛ لأنها فروع على الأصل، والأصل متفق عليه وهو لهذا حقيقة الإسـلام الذي يكون به المرء مسلمًا، فمن تولى عنه لم يكـن مسلمًا، كما نصت عليـه آية آل عمـران: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

---

(1) تفسير البيضاوي.
(2) سورة آل عمران، الآية: 64.
(3) سورة التوبة، الآية: 31.
(4) سورة آل عمران، الآية: 64.
(5) سورة آل عمران، الآية: 64.

ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ (1).

وكان نصارى نجران يمارون النبي ﷺ. **فبين لهم حد الإسلام (2). وهو الكلمة السواء التي التقت عليها جميع الكتب ولم تختلف فيها** وهي: ﴿ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ ﴾.

فمن لم يتحقق فيه هذا الحد ولم يستوفه، لم يكن مسلمًا، وإن ادعى ذلك كما ادعى نصارى نجران حينما قالوا للرسول الكريم ﷺ أسلمنا قبلك. ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ أي: عن التوحيد ﴿ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ دونكم، وأنكم كفرتم بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل.

أما غيرهم من النصارى، فمن استوفى الحد ـ حد الإسلام ـ قبل أن يدخل في دين محمد ﷺ، فلم ينكر القرآن عليهم دعواهم بل أقرهم عليها وحكى ذلك عنهم: ﴿ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴾ (3).

- **ثالثًا: هو الدين الذي لا يقبل الله تعالى دينًا غيره:**

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(4): « ولما كان الكبر مستلزما للشرك والشرك ضد الإسلام وهو الذنب الذي لا يغفره الله. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ (5)، كان الأنبياء جميعا مبعوثين بدين الإسلام، **فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره لا من الأولين ولا من الآخرين** ». أ هـ.

ويقول ابن تيمية (6): « وأما الكتب السماوية المتواترة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام **فناطقة بأن الله لا يقبل من أحد دينا سوى الحنيفية، وهى الإسلام العام ـ عبادة الله**

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 64.
(2) المقصود بـ (الحد) هنا المعنى الاصطلاحي، وهو أقل ما ينطبق به الاسم على مسماه؛ وليس المقصود به التعريف المنطقى الذى لا يتصور كنه أو ماهية أو حقيقة للمحدود بدونه وهو المعنى الذى عارضه شيخ الإسلام وغيره في مواضع كثيرة.
(3) سورة القصص، الآية: 53.
(4) رسالة العبودية، ص 34.
(5) سورة النساء، الآية: 48.
(6) الفتاوى الكبرى، جـ1، ص 400 مسألة (231).

وحده لا شريك له والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر.

إلى أن يقول: وقد قال تعالى مطلقًا: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ (1).

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ (2) ». أ هـ.

ـ ولذلك كانت الشهادتين هما مناط النجاة في الدنيا والآخرة.

يقول شيخ الإسلام (3): « ودين الله الذي هو الإسلام مبنى على أصلين:

1 - على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء.

2 - وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان رسوله ﷺ.

وهذان هما حقيقة قولنا: « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ». فالإله هو الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة وتعظيمًا ومحبةً وخوفًا ورجاءً وإجلالًا وإكرامًا. والله ﷻ له حق لا يشاركه فيه غيره. فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله. ولا يخاف إلا الله. ولا يطاع إلا الله ». أ هـ.

ـ ولكل قول حقيقة كما قال ﷺ، وحقيقة التلفظ: التوحيد.

• رابعًا: كثرة الاستدلالات على هذا الأصل:

هذا الأصل المذكور ـ وهو أن أصل دين الأنبياء كلهم جميعا هو إفراد الله بالعبادة، وأن هذا هو الدين الوحيد الذي لا يقبل الله غيره لا من الأولين ولا من الآخرين، وأن هذا هو تحقيق مدلول الشهادتين ـ هذا الأصل المذكور: الاستدلالات الشرعية عليه من كلام سلف الأمة وأئمتها أكثر من أن تحصر نسوق **منها ما يلي:**

1 - **يقول ابن تيمية** في رسالة العبودية (4): « وذلك أن العبادة هي الغاية المحبوبة لله المرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 18 - 19.
(2) سورة آل عمران، الآيتان: 84 - 85.
(3) قاعدة جليلة، ص 169. الناشر مكتبة القاهرة (على يوسف سليمان) تصحيح وتحقيق طبعة الزينى.
(4) رسالة العبودية لابن تيمية، ص 9، المطبعة السلفية.

لِيَعۡبُدُونِ ﴾ (1)، وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ (2)، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ ﴾ (3)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (4)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾(5) ». أ هـ.

2- **ويقول ابن كثير** في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾ (6):

يقول تعالى منكرًا على من أراد دينًا سوى دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

3- **ويقول** في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (7) أي: نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئا غيره ﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ أي مطيعون خاضعون كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ (8).

والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (9)، والآيات في هذا كثيرة والأحاديث فمنها: « **نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد** ».

4- **ويقول** (10) في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ

(1) سورة الذاريات، الآية: 56.
(2) سورة المؤمنون، الآية: 23.
(3) سورة النحل، الآية: 36.
(4) سورة الأنبياء، الآية: 25.
(5) سورة الأنبياء، الآية: 92.
(6) سورة آل عمران، الآية: 83.
(7) سورة البقرة، الآية: 133.
(8) سورة آل عمران، الآية: 83.
(9) سورة الأنبياء، الآية: 25.
(10) مع اختلاف يسير في العبارة لا يخل بالمعنى.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (1) أي: لا نعبد معه وثنًا ولا صنمًا ولا صليبًا ولا طاغوتًا بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له وهذه دعوة جميع الرسل كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (2)، وكما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (3).

5- **ويقول** في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾(4) أي: أن جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت إليه الناس من عبادة الله وحده لا شريك له ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد كقوله جلت عظمته: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (5).

6- **ويقول** في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(6): أي لا يأمركم بعبادة أحد غير الله لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (7) أي: لا يفعل ذلك؛ لأن من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر. والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (8).

وقال إخبارًا عن الملائكة: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ (9).

(1) سورة آل عمران، الآية: 64.
(2) سورة الأنبياء، الآية: 25.
(3) سورة النحل، الآية: 36.
(4) سورة الزخرف، الآية: 45.
(5) سورة النحل، الآية: 36.
(6) سورة آل عمران، الآية: 80.
(7) سورة آل عمران، الآية: 80.
(8) سورة الأنبياء، الآية: 25.
(9) سورة الأنبياء، الآية: 29.

الفصل الثاني
مادة العبادة غير مادة المعرفة

إذا كانت العبادة هي الغاية من الخلق وبها أرسل الله الرسل وأنزل الكتب فإن مادتها غير مادة المعرفة وإن كانت تستلزمها. وكذلك إفراد الله بالعبادة غير توحيده في الاعتقاد وإن كان يستلزمه ؛ ولذلك يعبر عن إفراد الله بالعبادة: بالتوحيد العملي الإرادي القصدي الطلبي ؛ وعن توحيده في الاعتقاد: بالتوحيد العلمي الخبري المعرفي المتصل بالخبر والاعتقاد.

ويوضح الشاطبي الفرق بين مادة العبادة ومادة العلم والمعرفة في "الموافقات"[(1)] فيقول عن القرآن: « إنه محتو من العلوم على ثلاثة أجناس هي المقصود الأول:

الأول: معرفة المتوجه إليه وهو الله المعبود سبحانه.

الثاني: معرفة كيفية التوجه إليه.

الثالث: معرفة مآل العبد ليخاف الله ويرجوه.

وهذه الأجناس الثلاثة داخلة تحت جنس واحد هو المقصود عبر عنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [(2)]، فالعبادة هي المطلوب الأول، غير أنه لا يمكن إلا بمعرفة المعبود إذ المجهول لا يتوجه إليه ولا يقصد لا بعبادة ولا بغيرها. فإذا عرف ؛ ومن جملة المعرفة به أنه آمر وناه ؛ وطالب للعباد بقيامهم بحقه ؛ توجه الطلب ؛ إلا أنه لا يتأتى دون معرفة كيفية التعبد فجيء بالجنس الثاني ولما كانت النفوس من شأنها طلب النتائج والمآلات أتى بالجنس الثالث.

فالأول: يدخل تحته علم الذات والصفات والأفعال.

والثاني: يشتمل على التعريف بأنواع التعبدات: من العبادات والعادات والمعاملات.

والثالث: يدخل فيه الموت وما يليه ويوم القيامة وما يحويه والمنزل الذي يستقر فيه ».

ويقول في المقدمات في المقدمة السابعة [(3)]:

« كل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون من حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله

(1) الموافقات، جـ3، ص 380 – 381.
(2) سورة الذاريات، الآية: 56.
(3) الموافقات، جـ1، ص 60 – 62.

تعالى لا من جهة أخرى.

فإن ظهر فيه اعتبار جهة أخرى فبالتبع والقصد الثاني لا بالقصد الأول.

إلى أن يقول: والثاني أن الشرع إنما جاء بالتعبد وهو المقصود من بعثه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ ﴾ (1)، ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ (2)، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (3)، ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾ (4) أي: يسوون به غيره في العبادة فذمهم على ذلك. وقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ ﴾ (5)، ﴿ لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (6)، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (7)، ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ (8)، وما أشبه ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصى كلها دال على أن المقصود التعبد لله وإنما أوتوا بأدلة التوحيد (9) ليتوجهوا إلى المعبود بحق وحده سبحانه لا شريك له ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ (10)، ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ (11)، وقال: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ﴾ (12)، **ومثله سائر المواضع التي نص**

---

(1) سورة الحج، الآية: 1.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 1.

(3) سورة البقرة، الآية: 2.

(4) سورة الأنعام، الآية: 1.

(5) سورة التغابن، الآية: 12.

(6) سورة الكهف، الآية: 2.

(7) سورة الأنبياء، الآية: 25.

(8) سورة الزمر، الآيتان: 2-3.

(9) توحيد الربوبية ليستدل به على توحيد الألوهية واستحقاق الله وحده للعبادة.

(10) سورة محمد، الآية: 19.

(11) سورة هود، الآية: 14.

(12) سورة غافر، الآية: 65.

فيها على كلمة التوحيد لا بد أن أعقبت بطلب التعبد لله وحده أو جعل مقدمة لها بل أدلة التوحيد هكذا جرى مساق القرآن فيها إلا تذكرة إلا كذا وهو واضح في أن التعبد هو المقصود من العلم، والآيات في هذا لا تخفى ». أ هـ.

ونحن نسوق هذا الاستدلال للتفريق بين دلالة ومادة لفظ العبادة ولفظ العلم والمعرفة والاعتقاد؛ لأن المرجئة ومن لف لفهم من الذين يقصرون التوحيد على الجانب القولي الاعتقادي فقط ولا يرون كفرًا إلا بجحود تفريقًا بين الآيات التي تقول: ﴿ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (1)، والآيات التي تقول: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (2)، فيعملون الأولى ويعطلون الثانية بالتأويل بأن المقصود بالعبادة هو التوحيد في الاعتقاد وهذا إذا لم يستطيعوا تأويل الحكم أولوا المناط وإذا استطاعوا تأويل الحكم إلى شرك أصغر أو كفر دون كفر أو ما إلى ذلك، ابقوا العبادة على مادتها والأصل فيها من العمل والقصد والطلب وفسروها بفروع الأعمال دون الأصل وقالوا: إن الشرك هنا بدخول الرياء في العمل وما إلى ذلك.

ونخلص من هذا كله إلى أن:

- **التوحيد: هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وبغيره لا يكون المسلم مسلمًا وهو حد الإسلام وأصل الدين والباقي من الدين فروع له مبنية عليه مشروطة به وهو الإسلام العام الذي جاءت به جميع الرسل.**
- **والتوحيد: هو إفراد الله بالعبادة وهو مستلزم لتوحيده في الاعتقاد.**
- **وكذلك يقول ابن القيم في كلمة جامعة مانعة يعرف بها حد الإسلام:**

« الإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له والإيمان بالله وبرسوله وإتباعه فيما جاء به فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم وإن لم يكن كافرا معاندا فهو كافر جاهل»(3).

وقد جمع في هذا التعريف بين التوحيد العملي الإرادي القصدي الطلبي والتوحيد العلمي المعرفي الخبري الاعتقادي وجعله حدًا للإسلام بغيره لا يكون المسلم مسلمًا.

(1) سورة العنكبوت، الآية: 47.
(2) سورة الزمر، الآيات: 64-66.
(3) في كلامه عن الطبقة السابعة عشرة فى كتاب: «طريق الهجرتين».

• الدلالات المختلفة لكلمة العبادة:

ولا بد هنا أن نعرض لبيان الدلالات المختلفة لكلمة العبادة كما جاءت في الاصطلاح الشرعي ؛ وذلك لكي نتعرف على مقاصد النصوص التي ترد فيها الكلمة بمواقعها المختلفة.

1- **العبادة بمعناها العام** الذي يتفق في دلالته مع معنى الإسلام الخاص وهو: ما تضمنته شريعة محمد ﷺ من تكاليف. والعبادة بهذا المعنى تجمع أصل الدين وفروعه فمعناها فعل المأمور كل المأمور وترك المحظور كل المحظور.

وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية في رسالة "العبودية"(1):

« العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة كالصلاة والصيام والزكاة والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك من العبادات لله ». أ هـ.

وسبق في ص 19 أن نقلنا عن الشاطبي ما فسر به التعبدات بأنها تشمل العبادات والعادات والمعاملات.

2- **العبادة بمعناها الخاص:** وهي النسك أي (العبادات) تمييزًا لها عن باقي أصناف التعبدات من العادات والمعاملات وكلها من الفروع.

<u>وتتميز العبادات عن العادات والمعاملات بأنها:</u>

عبادات	عادات ومعاملات
أ- تفتقر إلى نية. ب- حق خالص لله.	أ- لا تفتقر إلى نية. ب- فيها أنواع الحقوق الأربعة: 1- ما هو حق خالص لله. 2- وما هو حق خالص للعبد.

(1) رسالة العبودية ص1.

  جـ- مبناها على التوقيف والتفريع فيها قليـل: « **صلـوا كما رأيتمـوني أصلي** »، « **خذوا عني مناسككم** ». د ـ غير معقولة المعنى.	3- وما هو حق لله والعبد وحق الله غالب. 4- وما هو حق الله والعبد وحق العبد غالب. جـ- مبناهـا عـلى النظـر في المعـاني وتتبـع المقاصد والتفريع فيها كثير. د- معقولة المعنى.

وفي هذا يقول الشاطبي [1]: « الأصل في العبادات بالنسبة إلى المكلـف التعبـد دون الالتفات إلى المعاني، وأصل العادات الالتفات إلى المعاني ».

ويقول [2]: « كل ما ثبت فيه اعتبار التعبد فلا تفريع فيه وكل مـا ثبـت فيـه اعتبـار المعاني دون التعبد فلا بد فيه من اعتبار التعبد ».

ويقول الشاطبي في هذا الصدد [3]: « ويتبين بهذا أمور منها أن كـل حكـم شرعـي ليس بخال عن حق الله تعالى وهو جهة التعبـدا فـإن حـق الله عـلى العبـاد أن يعبـدوه ولا يشركوا به شيئا، وعبادته امتثال أوامره واجتناب نواهيه بإطلاق، فإن جاء مـا ظـاهره أنـه حق للعبد مجردا فليس كذلك بإطلاق بل جاء على تغليب حق العبد في الأحكام الدنيوية.

كما أن كل حكم شرعي فيه حق للعباد إما عاجلا وإما آجلا بناء على أن الشريعة إنما وضعت لمصالح العباد ؛ ولذلك قـال في الحـديث: « **حـق العبـاد عـلى الله إذا عبـدوه ولم يشركوا به شيئا ألا يعذبهم** » وعادتهم في تفسير (حق الله) أنه ما فهـم مـن الشرـع أنـه لا خيرة للمكلف فيه كان له معنى معقول أو غير معقول. و (حق العبد) ما كان راجعـا إلى مصالحه في الدنيا فإن كان من المصالح الأخروية فهو من جملة ما يُطلق عليه أنه حق الله.

ومعنى (التعبد) عندهم أنه ما لا يعقل معنـاه عـلى الخصـوص وأصـل العبـادات راجعة إلى حق الله وأصل العادات راجعة إلى حقوق العباد ».

ويقول أيضًا [4]: « والشكر هو صرف ما أنعم عليك في مرضاة المنعم وهـو راجـع إلى الانصراف إليه بالكلية ومعنى بالكلية أن يكون جاريًا على مقتضىـ مرضـاته بحسـب

---

(1) الموافقات، جـ2 ص 300.
(2) المصدر السابق، ص 310.
(3) المصدر السابق، كتاب المقاصد، جـ2، ص 317 – 318.
(4) الموافقات، جـ2، ص 321 – 323.

الاستطاعة في كل حال، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام: « **حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا** » ويستوي في هذا ما كان من العبادات أو العادات.

أما العبادات فمن حق الله تعالى الذي لا يحتمل الشركة فهي مصروفة إليه.

وأما العادات فهي أيضًا من حق الله تعالى على النظر الكلي ؛ ولذلك لا يجوز تحريم ما أحل الله من الطيبات فقد قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (1)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (2). فنهى عن التحريم وجعله تعديًا على حق الله تعالى. ولما هم بعض أصحاب الرسول ﷺ بتحريم بعض المحللات قال: « **من رغب عن سنتي فليس مني** ». وذم الله تعالى من حرم على نفسه شيئا مما وضعه من الطيبات بقوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ (3)، وقوله: ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ (4)، فذمهم على أشياء في الأنعام والحرث اخترعوها منها مجرد التحريم وهو المقصود هنا. وأيضا ففي العادات حق الله من جهة وجه الكسب ووجه الانتفاع ؛ لأن حق الغير محافظ عليه شرعًا أيضا ولا خيرة فيه للعبد، فهو حق الله تعالى صرفا في حق الغير حتى يسقط حقه باختياره في بعض الجزئيات لا في الأمر الكلي.

ونفس المكلف أيضا داخلة في هذا الحق، إذ ليس له التسليط على نفسه ولا على عضو من أعضائه بالإتلاف. فإذًا العادات يتعلق بها حق الله من وجهين:

1 – من جهة الوضع الكلي الداخل تحت الضروريات (التشريع).

2 – والثاني من جهة الوضع التفصيلي الذي يقتضيه العدل بين الخلق وإجراء المصلحة على وفق الحكمة البالغة ».أ هـ.

- **وهذا الوضع الكلي هو جهة التعبد في أي حكم شرعي، سواء كان يتعلق بالعبادات أم بالعادات أو المعاملات معناه كما يقول الشاطبي** (5):

«إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبد الله اختيارًا كما هو عبد الله اضطرارًا ».

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 32.
(2) سورة المائدة، الآية: 87.
(3) سورة المائدة، الآية: 103.
(4) سورة الأنعام، الآية: 138.
(5) الموافقات، كتاب المقاصد، جـ2، ص 168.

وفي ذلك يقول [1]: « لا تخلو أحكام الشرع من الخمسة. أما الوجوب والتحريم فظاهر مصادمتهما لمقتضى الاسترسال الطبيعي الداخل تحت الاختيار، إذ يقال له: (افعل كذا) كان لك فيه غرض أم لا، (ولا تفعل كذا) كان لك فيه غرض أم لا. فإن اتفق للمكلف فيه غرض موافق وهوى باعث على مقتضى الأمر أو النهي فبالعرض لا بالأصل. وأما سائر الأقسام، وإن كان ظاهرها الدخول تحت خيرة المكلف فإنما دخلت بإدخال الشارع لها تحت اختياره فهي راجعة إلى إخراجها عن اختياره.

ألا ترى أن المباح قد يكون له فيه اختيار وغرض وقد لا يكون. فعلى تقدير أن ليس له فيه اختيار بل في رفعه مثلا كيف يقال: إنه داخل تحت اختياره ؟ فكم من صاحب هوى يود لو كان المباح الفلاني ممنوعا حتى إنه لو وكل إليه مثلا تشريعه لحرمه كما يطرأ للمتنازعين في حق، وعلى تقدير أن هواه واختياره في تحصيله يود لو كان مطلوب الحصول حتى لو فرض جعل ذلك له لأوجبه ثم قد يصير الأمر في ذلك المباح بعينه على العكس، فيحب الآن ما يكره غدا وبالعكس فلا يستتب في قضية حكم على الإطلاق، وعند ذلك تتوارد الأغراض على الشيء الواحد فينخرم النظام بسبب فرض اتباع الأغراض والهوى، فسبحان الذي أنزل في كتابه: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[2]، فإذا إباحة المباح مثلًا لا توجب دخوله بإطلاق تحت اختيار المكلف إلا من حيث كان قضاء من الشارع وإذ ذلك يكون اختياره تابعا لوضع الشارع وغرضه مأخوذًا من تحت الإذن الشرعي لا بالاسترسال الطبيعي وهذا هو عين إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله ». أ هـ.

3- **ومن هذا البيان يتضح المعنى الثالث للفظ العبادة** هو: حق الله على العباد في كل فعل من أفعالهم سواء كان راجعًا إلى العبادات أو العادات أو المعاملات وهو معنى يتفق في دلالته مع معنى الإسلام العام الذي أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب وهو معنى الاستسلام لله وحده ومعناه قبول حكم الله ورفض ما سواه أو بعبارة أخرى (التزام شريعة الرسول جملة وعلى الغيب) وهو معنى العبادة المجرد الراجع إلى أصل الدين الذي هو ركن من أركان النوع الثاني من التوحيد. والعبادة بهذا المعنى هي التوحيد، وأغلب ألفاظ العبادة في القرآن هي من النوع الثالث.

---

(1) المصدر السابق، جـ2، ص 170 - 171.
(2) سورة المؤمنون، الآية: 23.

وكذلك يقـول النسـفي في تفسـير قولـه تعـالى: «﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [1]:

فاعبدوا ربكم وحده. قال ابن عباس: « كل عبادة في القرآن فهي توحيـد »، احـتج عليهم بأنه خالقهم وخالق من قبلهم ؛ لأنهم كانوا مقرين بذلك فقيل لهم: إن كنتم مقرين بأنه خالقكم فاعبدوه ولا تعبدوا غيره». أ هـ.

ويقـول القرطبي في تفسير نفس الآية:

« العبـادة هنـا عبـارة توحيـده والتزام شرائعـه». أ هـ.

ويعني كلمة (هنا) لذكر كلمـة (النـاس) حيـث الخطـاب للنـاس كافـة المـؤمن والكافر، والكافر لا يخاطب بالفروع، وإنما يُدعى إلى الأصل أولاً.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 21.

الفصل الثالث
ما يمتاز به أصل الدين عن فروعه

الأصل ما حددته بدقة آية آل عمران: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ (1)، والفروع التي تحدثت عنها آية المائدة: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (2)، ويجمع بين الأصل والفروع حديث رسول الله ﷺ: « **نحن معاشر الأنبياء أخوة لعلات ديننا واحد** ».

ومن خصائصه:

1- **أصل الدين محكم** لا يدخل عليه نسخ ولا تخصيص ولا استثناء ولا يتغير من رسالة إلى رسالة، وأحكامه واحدة في كل الرسالات بخلاف الفروع منها ما يتغير من رسالة إلى رسالة بل وفي نفس الرسالة ومنها ما لا يتغير.

2- **الأصل هو أول من دعا الرسول ﷺ الخلق إليه** وأول ما قاتلهم عليه وهو أول ما أنزل الله به رسله أن يأمروا الناس به، ولذلك لابد أن يكون معلومًا للناس من أول وهلة في الرسالة، لأن المسلم لا يكون مسلمًا بغيره. وهو واضح في قول الرسول لقومه: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (3)، فالذي يعبد الله هو الذي يطيع أمره وأمر رسله ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين ويعادي أعداءه الكافرين. وأما الآيات التي جاءت في سورة الأنعام والنساء والمائدة... إلخ، فهي تفصيل وبيان ؛ لأن النصوص إذا تكررت تقررت وإذا انتشرت تأكدت. أما الفروع فتستكمل تدريجيًا كالتدرج في فرض الصلاة والصيام والحج وتحريم الخمر والربا وفرض الحجاب وهذا لا ينافي تأخر بعض الأحكام الخاصة بالمعاملات والمتصلة بحد الإسلام لحين مناسبتها؛ لأن كلامنا على الحد فلابد من التعريف به.

3- **لا يقبل ركن من أركان الحد بغير الركن الآخر** فلا يقبل تصديق بغير التزام ولا التزام بغير تصديق، فلابد من استيفاء الحد كله لاستحقاق الاسم والصفة وتخلف ركن من أركان الأصل يتخلف به الأصل، والدين يتخلف بتخلف الأصل. أما

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 64.
(2) سورة المائدة، الآية: 48.
(3) سورة هود، الآية: 50.

الفروع فالغالب فيها ألا تلازم بينها لقوله تعالى : ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ [1]، وإن كانت بعض السيئات تحبط بعض الحسنات وتمنع من قبول البعض الآخر وبعض الحسنات يكفر عن بعض السيئات فإن الحسنات يذهبن السيئات وبعض الحسنات لها خصائص في التكفير عن الذنوب ليست لغيرها إلا أن الفروع تتبعض وتتفاوت، **والأصل لا تفاوت ولا تبعيض بين أركانه.**

4- **الأصل يسبق الفروع والفروع لا تقبل ولا تصح بغيره** ولا تصح إذا كان وقوعها على غير مقتضاه وقيامها على غير قاعدته.

5- **العلاقة بين الأصل والفروع كالعلاقة بين الصفة والموصوف** فالصفة لا تقوم في غير موصوف ؛ ولذلك فهي تتخلف بتخلفه وهذا **واضح** مما سبق، أما الموصوف فيقوم بغير صفة.

ولكن إذا تخلفت جملة من الفروع أصبح الأصل مهددًا وأصابه الانخرام ؛ لأن الفروع حمى له وهذا ينطبق على الفروع أيضا بالنسبة لبعضها البعض فإن من وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام ومن اتقاها فقد استبرأ لدينه وعرضه كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه[2].

---

(1) سورة التوبة، الآية: 102.

(2) راجع الجزء الثاني من الموافقات، ومدارج السالكين الجزء الأول.

الفصل الرابع
الشرك في العبادة أكبر وأصغر

وما ذكرناه من التوحيد هو ما قال عنه الإمام ابن القيم [1] **إنه: يطهر من الشرك الأكبر** دون الأصغر، وهو: أقل ما يفرغ به الإنسان من العهدة، وأقل: ما يتحقق به اسم التوحيد وهو ما يرجع إلى حد الإسلام وماهيته بحيث تتعلق به صفة الإسلام وجودًا أو عدمًا، فلا توجد قبل وجوده وتتخلف بتخلفه، ويتخلف الحد بتخلف ركن من أركانه ؛ لأنه لا يتجزأ ولا يتبعض.

أما الشرك الأصغر فيطهّر منه تجريد التوحيد واستكمال حقيقة العبودية والترقي في مراتبها التي يتفاوت فيها الناس ويتفاضلون فيها تفاضلًا عظيمًا وذلك بكمال الاعتصام بالله والتوكل على الله وتعلق القلب به خوفًا ورجاءً وحبًا وتعظيمًا مع التجرد من حظوظ النفس وأخذ المتع والطيبات من جهة الإذن وإسقاط الحظوظ والتسليم الكامل لأمره الكوني والشرعي بلا أدنى شائبة من الحرج مع الاستغناء عن الخلق بالخالق وما إلى ذلك.

يقول ابن كثير[2] في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [3]:

« وقوله: قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السموات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله وهم مشركون به، وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وفى الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك)، وفى صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا: (لبيك لا شريك لك) قال رسول الله ﷺ: «**قد قد**» أي: حسب حسب لا تزيدوا على هذا. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [4]، **وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره**، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: « **أن تجعل لله ندًا وهو خلقك** »، وقال الحسن البصري في قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾، قال ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله ذلك يعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ

---

(1) في الكلام عن (الرضا) في الجزء الثاني من مدارج السالكين.
(2) تفسير ابن كثير، جـ2، ص 494 – 495، طبعة عيسى البابى الحلبي (4 أجزاء).
(3) سورة يوسف، الآية: 106.
(4) سورة لقمان، الآية: 13.

﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (1)، **وثَـمَّ شرك آخر خفي لا يشعر به غالبًا فاعله** كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجـود عـن عروة قال: دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرا فقطعـه ـ أو انتزعـه ـ ثم قـال: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾.

وفى الحديث: « **من حلف بغير الله فقد أشرك** »، رواه الترمذي وحسنه مـن روايـة ابن عمر. وفى الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود عن ابـن مسـعود ﷺ قـال: قـال رسول الله ﷺ: « **إن الرقى والتمائم والتولة شرك** »، وفى لفظ لهما: « **الطيرة شرك وما منا إلا، ولكن يذهبه الله بالتوكل** ».

إلى أن يقول: وفى حديث آخر رواه الإمام أحمد عن وكيع عـن ابـن أبـى لـيلى عـن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلت على عبد الله بن حكيم وهو مريض نعوده فقيل له: لـو تعلقت شيئا. فقلت: أتعلق شيئا؟ وقد قال رسول الله ﷺ: « **من تعلق شيئا وكـل إليـه** »، ورواه النسائي عن أبى هريرة وفى مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قـال: قـال رسول الله ﷺ: « **من علق تميمة فقد أشرك** »، وفى رواية: « **من تعلق تميمة فـلا أتـم الله لـه ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له** ».

وعـن العـلاء عن أبيه عن أبى هريرة ﷺ قـال: سمعت رسـول الله ﷺ يقـول: « **قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غـيري تركتـه وشركه** »، رواه مسلم.

إلى أن يقول: وقال أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث عن يزيد ـ يعنى ابن الهـادي ـ عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: « **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** »، قال: ما الشرك الأصغـر يا رسـول الله؟ قـال: « **الريـاء. يقـول الله تعـالى يـوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنـتم تـراءون في الـدنيا فـانظروا هـل تجدون عندهم جزاء** ».

إلى أن يقول: وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، أنبأنا ابن لهيعة، أنبأنا ابن هبـيرة عـن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: « **مـن ردتـه الطـيرة عن حاجته فقد أشرك** » قالوا: يا رسول الله ما كفارة ذلك؟ قال: « **أن يقول أحدهم اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك** ». وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بـن

(1) سورة النساء، الآية: 142.

نمير، حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان العرزمى عن أبى على رجل من بنى كاهل قال: خطبنا أبو موسى الأشعري قال: يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل، فقام عبد الله بن حزن والمضارب فقالا: والله لتخرّجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون قال: بل أخرّج مما قلت خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: « **يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل** »، فقال له من شاء الله أن يقول، فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله قال: « **قولوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه** ». أ هـ.

ويقول ابن كثير [1] في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [2]:

« قال ابن عباس: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي ويقول: لولا كلب هذا لأتانا اللصوص البارحة، ولولا البط في الدار لأتاني اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان هذا كله به شرك ». أ هـ.

- **بم يعرف الشرك الأصغر من الشرك الأعظم ؟**

1- **بدلالة اللفظ**: قالوا ما الشرك الأصغر يا رسول الله قال: « **الرياء** ».

2- **بدلالة النص**: « الطيرة شرك وما منا إلا، ولكن يذهبه الله بالتوكل ».

3- **بدلالة نص آخر على نفس الفعل**: « أن تقول وحياتي وحياتك » من الشرك الخفي تفسيرًا لـ « من حلف بغير الله فقد أشرك ».

4- **بعدم الرجوع إلى الحد.**

ألفاظ الشرك في القرآن غائية كلها. والسنة فيها ما هو غائي وفيها ما هو واسطة بين طرفين نبه عليه القرآن معنى وسكت عنه لفظًا فنصت عليه السنة [3].

(1) تفسير ابن كثير، جـ1، ص 88.
(2) سورة البقرة، الآية: 22.
(3) معنى مستفاد من كتاب "الموافقات". جـ3، ص 45.

الفصل الخامس
أثر التوحيد في الذنوب وأثرها فيه

للتوحيد مع الذنوب ثلاثة أوضاع:

1 – **التوحيد الذي بلغه صاحبه درجة عالية من التجرد والإخلاص**، وقوة الاعتصام والتوكل وعظيم الحب والتوجه مع المبالغة في العبودية والخضوع والالتفات إلى الخالق سببًا وغاية والانشغال بطلبه عن الخلق. هذا التوحيد يكفر لصاحبه سجلات من الذنوب كما في حديث البطاقة التي طاشت لها السجلات.

2 – **توحيد لا يتجاوز الفراغ من العهدة واستيفاء الأركان**، فهذا توحيد يخشى عليه من الضياع وأن يموت صاحبه على التبديل والتغيير إذا تكاثرت عليه الذنوب ؛ لأن كل مرتبة من مراتب الإسلام الثلاث حمى لغيرها. فالدخول في مرتبة الإحسان بترك بعض المكروهات والتنزه عن المشتبهات وفعل بعض المندوبات حمى لمرتبة المقتصد وإلا أوشكت على الانخرام. وكذلك إذا تعرت مرتبة الإسلام من كل المفروضات ومن ترك المحرمات فواقع صاحبها كل المحرمات وترك كل الفرائض ووقف على حد الإسلام لا يتجاوزه بشيء [(1)] من الطاعات بإتيان أو ترك. أوشكت مرتبة الإسلام على الانخرام وانحط إلى هاوية الشرك والعياذ بالله والدليل:

أ– قول الرسول ﷺ: عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب ».

ب– وفي الحديث [(2)] ما معناه: « أن العبد إذا أذنب ذنبًا نكت في قلبه نكتة سوداء فإن

---

(1) هذا يكفره شيخ الإسلام ابن تيمية بالدلالة والمآل وليس في الحال وهو موضوع كتابه "الإيمان الأوسط" ويقول ابن حجر عمن نجا منهم وهم الجهنميون عتقاء الرحمن إنهم لم يعلم أمرهم إلا الله ؛ ولذلك لم يخرجوا من النار بشفاعة النبي ﷺ لخفاء أمرهم.

(2) الحديثان:

1– حدثنا محمد بن بشار، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا عجلان عن القعقاع عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في

تاب ونزع صقل قلبه وإن عاد عادت حتى تصير القلوب على قلبين قلب أسود مرباد كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواه، وقلب أبيض لا تضره الفتن ما دامت السموات والأرض »، ويقول الرسول الحبيب في ذلك: « فذلكم الران الذي حدثكم الله عنه ».

ونفس المعنى في الحديث الآخر: « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا فأيما قلب أُشربها نكت فيه نكتة سوداء وأيما قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير القلوب على قلبين قلب أسود مرباد كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه، وأبيض لا تضره فتن ما دامت الحياة الدنيا »، وفي الأثر: « المعاصي بريد الكفر ».

3 ـ **وبين هذين الوضعين** من لا تقوى ذنوبه مهما تعاظمت على أن تعصف بتوحيده ولا يقوى توحيده على تكفيرها فلا يبقى له من عمله إلا التوحيد فهؤلاء يخرجهم الرحمن بقبضته من النار بعد طول المكث فيها، ولم يعملوا خيرًا قط زيادة على التوحيد ويسمون عتقاء الرحمن ولا يبقى في النار من أهل التوحيد أحد بعد هؤلاء ولا يبقى فيها إلا من حبسه القرآن وأوجب عليه الشرك الخلود فيها وأجمع السلف على أنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد.

قلبه فإن تاب ونزع واستعتب صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ سورة المطففين».

يقول ابن كثير: هذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة والليث بن سعد وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم بن إسماعيل والوليد بن مسلم ثلاثتهم عن محمد بن عجلان به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للإيمان إليها مسلك ولا للكفر عنها مخلص. فذلك هو الختم والطبع الذي ذكره الله في قوله: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ سورة البقرة، الآية: 7.

2- ويقول ابن كثير نقلاً عن القرطبي: « وقد ذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا»، الحديث. جـ1, ص74.

الباب الثاني

أنـواع التـوحيـد

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفهرس

الفصل الأول

التوحيد في الاعتقاد

(توحيد الصفات أو التوحيد القولى)

نكتفي في هذا الفصل بذكر قواعد عامة توضح منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب وتفسر كل ما كتبوه بعد ذلك تفصيلًا لبيان هذا المنهج.

يقول ابن تيمية في تقرير الصفات في رسالة له شرح "العقيدة الأصفهانية" [1]:

وهنا أربع مسائل: مسألتان عقليتان ومسألتان سمعيتان ولغويتان:

الأولى: أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها إلى ذلك المحل فكان هو الموصوف بها فالعلم والقدرة والكلام والحركة والسكون إذا قام بمحل كان ذلك المحل هو العالم القادر المتكلم أو المتحرك أو الساكن.

الثانية: أن حكمها لا يعود على غير ذلك المحل فلا يكون عالمًا بعلم يقوم بغيره، ولا قادرًا بقدرة تقوم بغيره ولا متكلمًا بكلام يقوم بغيره ولا متحركًا بحركة تقوم بغيره. وهاتان عقليتان.

الثالثة: أن يشتق لذلك المحل من تلك الصفة اسم إذا كانت تلك الصفة مما يشتق لمحلها منها اسم كما إذا قام العلم أو القدرة أو الكلام أو الحركة بمحل قيل عالم أو قادر أو متكلم أو متحرك.

الرابعة: أنه لا يشتق الاسم لمحل لم تقم به تلك الصفة فلا يقال لمحل لم يقم به العلم أو القدرة أو الإرادة أو الكلام أو الحركة إنه عالم أو قادر أو مريد أو متحرك.

إلى أن يقول رحمه الله عن عقيدة السلف في نسبة صفات الله وأفعاله إليه ﷻ:

« وأما السلف وجمهور المسلمين من جميع الطوائف فإنهم طردوا أصلهم وقالوا: بل الأفعال تقوم به كما تقوم الصفات والخلق ليس هو المخلوق، وذكر البخاري أن هذا هو

---

(1) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية. قدم له وعرف به حسنين مخلوف. طبعة دار الكتب الحديثة، ص 62 – 63.

إجماع العلماء ومن قال: الصفات تنقسم إلى صفات ذاتية وفعلية ولم يجعل الأفعال تقوم به فكلامه فيه تلبيس فإنه سبحانه لا يوصف بشيء لا يقوم به ». أ هـ.

بعض التوضيحات الخاصة بالتوحيد القولي (توحيد الصفات):

1- **الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها:** أن يوصف الله بما وصف به نفسه من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، فإنه قد علم بالشرع مع العقل أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

2- **للإثبات طريق واحد** وهو النص. **وللنفي طريقان:** أ- النص. ب- أن يتنافى مع ما أثبته نص آخر من الكمالات مثل ما جاء به في حديث الخضر عن علمه وعلم موسى أنهما لا ينقصان من علم الله إلا مثلما ينقص العصفور بمنقاره من ماء البحر فقد فسر ابن تيمية كلمة ينقص بمعنى نسبة علمي وعلمك إلى علم الله كنسبة كذا إلى كذا وليس بمعنى النقصان ؛ لأن علم الله لا ينقص.

3- **الالتزامات الفلسفية** ليست من طرق الإثبات أو النفي ؛ لأن المعتزلة والفلاسفة نفوا الصفات لالتزام التزموه عندما أثبتوا وجود الله سبحانه وتعالى بطريقة الممكن والواجب المأخوذة عن أرسطو. والأشاعرة نفوا صفات الأفعال لالتزام التزموه عندما أثبتوا وجود الله سبحانه وتعالى بطريقة الجوهر الفرد المأخوذ أيضا من الفلسفة الإغريقية. والطرق القرآنية لإثبات وجود الله سبحانه وتعالى شرعية عقلية ؛ لأنها سيقت على طريقة البرهان العقلي وهى أقوى وأقرب، وأصح الاستدلالات العقلية، ولكن المتكلمين أعرضوا عنها لظنهم أن الشرع إنما يدل بطريق الخبر الصادق فدلالته موقوفة على العلم بصدق المخبر وجعلهم ما يبنى على صدق المخبر معقولات محضة فعجزوا عن إثبات وجود الله إلا بنفي صفاته (1).

4- **التوقف في الألفاظ المبتدعة** من الجسم والعرض والحيز وما إلى ذلك التي لم يتعرض لها الشرع بإثبات أو نفي، وهذا هو مذهب السلف الصالح. وعند ابن تيمية فما كان من معناها موافقًا أثبتناه وما كان منافيًا نفيناه وطريقة الإمام أحمد أصح (2).

---

(1) الفتاوى، جـ5، معنى مستفاد.
(2) لأن هذا هو مذهب السلف الصالح؛ ولذا فهو الأسلم والأحكم.

5- **العبرة بدلالة النص على الصفة وليس بدلالة اللفظ،** فإن اللفظ قد يوهم تبعيضًا أو تشبيهًا، بينما النص على طريقة الاستعارة أو الكناية أو التشبيه أو التمثيل، وهكذا نفهم مجارى الأساليب العربية: المعنى التركيبي الذي تعطيه الجملة وليس مجرد المعنى الإفرادي المستفاد من اللفظ (الرسالة التدمرية ـ كلام الإمام أحمد في تفسير سورة الإخلاص ـ الفتاوى ـ النبوات).

6- **الصفات ليست أعيانًا قائمة بذاتها ؛** لأن لفظ الجلالة ليس اسمًا لذات مجردة عن الصفات، وإنما هو اسم لذات متصفة بصفات، والصفات غير الذات ولكنها ليست بائنة عنها وإنما هي معان تقوم بها، لا نقول: كان الله وصفاته، وإنما نقول: كان الله بصفاته وذاته، سبحانه وتعالى عما يقول المعطلة، والمشبهة علوًا كبيرًا (اقتضاء الصراط المستقيم – تفسير سورة الإخلاص – التدمرية).

7 – **وخلاصة القول:**

- إثبات وحدانية الذات مع إثبات العلو والمباينة والرؤية من غير إحاطة ولا تحيز ولا تبعيض ولا تركيب وفقًا لما جاءت به النصوص نفيًا وإثباتًا مع مراعاة القواعد التي سبقت الإشارة إليها في فهمها.
- إثبات الصفات وإثبات الأفعال الاختيارية، وأن صفات الله وأفعاله تقوم به لا تقوم بغيره مع نفي التشبيه والتمثيل والتكييف.
- إثبات القدر، وعموم المشيئة والعلم والخلق والتدبير: ﴿ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [1]، دون أن يعوزنا ذلك إلى نفي الحكمة أو العدل أو التقصير في التنزيه أو إثبات الجبر على النحو الذي سيأتي بيانه[2]، **هذه هي عقيدة السلف.**

والمتكلمون قالوا: لا داخل العالم ولا خارجه وقال البعض منهم: هو موجود في كل وجود، فلم يثبتوا مباينة الخالق عن المخلوق، ونفوا الرؤية والاستواء والعلو.

وفسروا الصفة بالصفة الأخرى والصفة الأخرى بالذات فقالوا: القدرة والإرادة هما العلم والعلم هو العالم. وبعضهم أثبت أسماء لا تدل على معان لا قائمة به ولا منفصلة عنه كالحي والعليم والقدير.

---

(1) سورة يس، الآية: 83.

(2) سيأتي الكلام عن مسائل القدر تفصيلاً فى الفصل التالى من هذا الباب.

وبعضهم قال عن أفعاله: إنها لا تقوم به وإنما هو عادل محسن بعدل وإحسان يقـوم بغيره وجعلوا الفعل هو المفعول والخلق هو المخلوق.

والبعض الآخر عمم ذلك ليشمل الصفات والأفعال فجعلوا كـل مـا وصـف بـه الرب نفسه من كلامه ومشيئته وحبه وبغضـه ورضـاه وغضـبه مخلوقـات منفصـلة عنـه فوصفوه بما يقوم بغيره، ومن هنا جاءت مسألة خلق القرآن فالمعتزلـة قـالوا: هـو مـتكلم بكلام يخلقه في غيره، والأشاعرة قالوا: إن الكلام هو حديث النفس استنادًا لبيت لشاعر نصراني هو الأخطل وأن الكلام بهذا الاعتبار صفة لازمة لله ﷻ تقوم بذاتـه، أمـا القـرآن فليس كلام الله وإنما هو تعبير عنه وبهذا الاعتبار جاز أن يكون مخلوقًا. وعقيدة السلف أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متكلمًا بمشيئته وأن القرآن كلام الله غير مخلوق على نحو ما قالـه أحمد بن حنبل وفسره عنه البخاري رضي الله عنهم جميعًا.

الفصل الثاني
مسائل القـدر

- **تلخيصًا لمذهب أهل السنة والجماعة في القدر نقول:**

إن الله خلق أفعال العباد وهم يفعلونها حقيقة، والله أراد الابتلاء إرادة شرعية وكونية وعلم ما يترتب عليه من الخير والشر ولا يقع شيء في ملكه بغير مشيئته ولكن لا يحب الشر ولا يرضاه شرعًا أو قدرًا، **وأراد الخير وأحبه إرادة شرعية وقدرية ولم يرد الشر إرادة شرعية وإن كان قد علم ترتبه على الابتلاء وأراد وقوعه من أجل هذه الحكمة ووفقًا لهذه الغاية والمشيئة إرادة قدرية كونية والله شاء أن يبتلى عباده بالخير والشر:** ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [1]، ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [2]، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [3]، ولو شاء غير هذا لكان ولكنه شاء هذا فكان. ولو جبر الله لجبل على الخير ولكن هذا يتنافى مع حكمته في الابتلاء وسبق مشيئته فلم يفعله وهذا ما يقوله ربنا ﷻ لنبيه في سورة يونس عندما طلب رسوله ﷺ آية تلوى أعناق المشركين وتحملهم على الإيمان حملا فقال له ربه: إنه لو كان ذلك مطلوبًا لجبلهم على الإيمان خلقا ولكن ذلك يتنافى مع حكمته وسابق مشيئته في الابتلاء: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [4] أي: لا يتفكرون، ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [5].

والتوفيق للطاعة ثمرة الطاعة والختم والغشاوة والحيلولة بين المرء وقلبه ثمرة المعصية، وإذا كان الله يجتبي من رسله من يشاء ويصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس فالله أيضًا أعلم حيث يجعل رسالته فله طلاقة المشيئة وعمومها وله عموم الحكمة والحمد عليها لا يُسئل عما يفعل ولا يفعل بغير حكمة.

---

(1) سورة الشمس، الآية: 8.
(2) سورة البلد، الآية: 10.
(3) سورة الإنسان، الآيتان: 2-3.
(4) سورة يونس، الآيات: 99-101.
(5) سورة النساء، الآية: 147.

والتوفيق بين سابق علمه بما سيكون من عباده وبين سابق مشيئته في ابتلائهم وما يترتب عليه من تمكينهم مما أرادوه من الخير أو الشر بغير جبر **توفيق بين صفتين من صفات الله لا ندرك كنههما كما لا ندرك كنه ذاته.**

ولهذا يقول شيخ الإسلام رحمه الله (1):

« **ولهذا كان أهل السنة والجماعة على أن العبد فاعل لأفعاله حقيقة والله خلق الفاعل فاعلًا.** كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ (2)، وليس كونه قادرًا مريدًا فاعلًا بألزم من كونه طويلًا قصيرًا والله خلقه على هذه الصفة فليس ما ذكره الله في كتابه من أن العباد يفعلون ويصنعون بمنافٍ أن يكون خلقهم على هذه الصفة وكون العبد فاعلًا لما جعل الله فيه من القدرة هو كسائر ما خلقه الله قدرة فيه وقدرته سبب في حصول مقدوره كسائر الأسباب والمسببات. والأسباب لا ينكر وجودها ولا ينكر أن الله خلقها وخلق المسبب بها، فمن قال: قدرة العبد مؤثرة في المقدور كتأثير سائر الأسباب في مسبباتها لم ينكر قوله، ومن قال: ليست مؤثرة أي ليست مستقلة وليست مبدعة كما أن سائر الأسباب ليست كذلك لم ينكر قوله. فإن السبب ليس علة مستقلة بمسببه بل لابد له من أسباب أخرى ولابد من صرف الموانع والله خالق مجموع الأسباب وصارف جميع الموانع وهذا هو الخلق المطلق الذي ليس إلا لله وحده وكل ما سواه مما يجعل سببا ومؤثرًا فإنه جزء سبب فلا ينفي هذا الجزء ولا يعطى ما لا يستحقه من كونه مبدعا خالقًا ومن كونه واحدًا لا شريك له فهو رب كل شيء ومليكه ». أ هـ.

ويقول ابن تيمية(3): « وهو سبحانه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. لكن لا يشاء إلا ما يناسب حكمته ورحمته وعدله ». أ هـ.

فأهل السنة إذن يثبتون صفات الله تعالى كلها، فيؤمنون بالمشيئة المطلقة لله ﷻ، ويؤمنون في الوقت نفسه بالعدل والحكمة، فلا يسقطون في تعطيل بعض الصفات كما سقط في ذلك المخالفون لهم من أرباب المقالات الفاسدة.

يقول ابن تيمية (4): « وأيضا فإنه قد ثبت أنه مريد وأن الإرادة تخصص المراد عن غيره وهذا إنما يكون إذا كان التخصيص لرجحان المراد إما لكونه أحب إلى المريد وأفضل عنده،

---

(1) الفتاوى الكبرى، جـ5، ص 323 – 324 بعد كلام.
(2) سورة المعارج، الآيات: 19–21.
(3) رسالة النبوات، ص 107.
(4) رسالة النبوات، ص 251.

فأما إذا ساوى غيره من كل وجه امتنع تـرجيح الإرادة لـه، فكـان إثبـات الإرادة مسـتلزمًا إثبات الحكمة، وإلا لم تكن إرادة فقد تبين ثبوت حكمته من جهة علمـه ومـن جهـة نفـس أفعاله المتقنة المحكمة التي تدل على علمه بالاتفـاق، وهـذه أصـول عظيمـة مـن تصـورها تصورًا جيدًا انكشف له حقائق هذا الموضوع الشريف، وإذا ثبـت أنـه حكـيم وأن حكمتـه لازمة لعلمه ولازمة لإرادته وهما لازمان لذاته كانت حكمته من لوازم ذاته فيمتنع أن يفعل إلا لحكمة وبحكمة، ويمتنع أن يفعل على خلاف الحكمة ومعلوم بصريح العقل أن العلـم خير من الجهل، والصدق خير من الكذب، والعدل خير من الظلم، والإصـلاح خـير مـن الفساد، ولهذا وجب اتصافه تعالى بالرحمة والعلم والصدق والعدل والإصلاح دون نقيض ذلك، وهذا ثابت في خلقه وأمره، فكما أنه في خلقه عادل حكيم رحيم فكذلك هـو في أمـره وما شرعه من دين فإنه لا يكون إلا عدلا وحكمة ورحمة ليس هو كما تقول الجهمية المجبرة ومن تبعهم من أهل الكلام والرأي إنه يأمر العباد بما لا مصلحة لهم فيه إذا فعلوه وإن ما أمر به لا يجب أن يفعل على حكمة وينكرون تعليل الأحكام.

ويقولون: إن علل الشرع أمارات محضة فهذا كله باطل كما قد بسط في مواضع بـل ما يأمر به مصلحة لا مفسدة وحسن لا قبيح وخير لا فساد وحكمة وعدل ورحمة والحمد لله رب العالمين ». أ هـ.

ويقول رحمه الله (1): « وهذه النصوص النافيـة للظلـم تثبـت العـدل في الجـزاء وأنـه لا يبخس عامل عمله وكـذلك قولـه فـيمن عـاقبهم: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ (2)، وقولـــــه: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(3)، بين أن عقاب المجرمين عدلًا لـذنوبهم لا لأنـا ظلمنـاهم فعاقبنـاهم بغير ذنب والحديث الذي في السنن: « **لو عذب الله أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا مـن أعمالهـم** »، بـين أن العـذاب لـو وقـع لكـان لاستحقاقهم ذلك لا لكونه بغير ذنب، وهذا يبين أن من الظلم المنفى عنه عقوبة من لم يذنب.

إلى أن يقول: يبين ذلك أن ما قاله الناس في حـدود الظلـم يتنـاول هـذا دون ذلـك كقول بعضهم: الظلم وضع الشيء في غير موضعه.

إلى أن يقول: ومعلوم أن الله سبحانه وتعـالى حكـم عـدل لا يضـع الأشـياء إلا في

(1) الفتاوى جـ1، ص 406-407، المسألة (232).
(2) سورة هود، الآية: 101.
(3) سورة الزخرف، الآية: 76.

مواضعها ووضعها في غير مواضعها ليس ممتنعًا لذاته بل هو ممكن لكنه لا يفعله ؛ لأنه لا يريده بل يكرهه ويبغضه، إذ قد حرمه على نفسه. وكذلك من قال: الظلم إضرار غير مستحق فإن الله لا يعاقب أحدًا بغير حق، وكذلك من قال: هو نقص الحق وذكر أن أصله النقص كقوله تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾(1).

إلى أن يقول: وبهذا يتعين القول الوسط: وهو أن الظلم الذي حرمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها، ويعاقب البريء على ما لم يفعله من السيئات ويعاقب هذا بذنب غيره، أو يحكم بين الناس بغير القسط ونحو ذلك من الأفعال التي يتنزه الرب عنها لقسطه وعدله وهو قادر عليها، إنما استحق الحمد والثناء ؛ لأنه يترك هذا الظلم وهو قادر عليه وكما أن الله منزه عن صفات النقص والعيب فهو أيضا منزه عن أفعال النقص والعيب ». أ هـ.

ونخلص من هذا وغيره من كتابات ابن تيمية في هذا المجال إلى أنه:

1 – **الأشياء لها في ذاتها حسن وقبح ذاتي**، وهذا الحسن والقبح قد يدركه العقل تفصيلًا في بعض الأشياء أو يدركه جملة في بعضها الآخر، أو لا يدركه ولكن ليس خارجًا مطلقا عن حيز إدراكه (2). وإلا لما خاطب القرآن العقل بطريقة البرهان العقلي والاستدلال كما خاطبه بالطريقة التكليفية. ثم الشرع ينبه العقل ويحوطه من غوائل التفكير ومن سيطرة الهوى وغلبة الإلف وغير ذلك ويدعوه إلى التأمل والنظر الصحيح المبنى على المقدمات وأصول صحيحة للتفكير والاستدلال. فالقرآن يخاطب العقل ولا يحكّمه.

2 – **ليس الخالق كالمخلوق** حتى يكون ما جعلناه حسنًا لهذا أو قبيحًا حسنًا للآخر أو قبيحا له كما يفعل مثل ذلك القدرية، لما بين العبد والرب من الفروق الكثيرة ولله المثل الأعلى والقدرية حجروا عليه أن يفعل إلا ما ظنوا بعقلهم أنه الجائز له، حتى وضعوا له شريعة التعديل والتجويز، لا بمعنى أن العقل آمر له أو ناه، فإن هذا لا يقوله عاقل، بل بمعنى أن تلك الأفعال مما علم بالعقل وجوبها وتحريمها وأدخلوا في ذلك من المنكرات ما بنوه على بدعتهم في التكذيب بالقدر ولوازم ذلك وتوابعه.

3 – **وإن فرضنا أن حسن الأفعال وقبحها لا يعلم إلا بالشرع، فالشرع قد دل على أن الله**

---

(1) سورة الكهف، الآية: 33.
(2) لأنه يدرك أنه لا يدركه.

قد نزه نفسه عن أفعال وأحكام (1) فلا يجوز أن يفعلها تارة بخبره مثبتـا عـلى نفسـه بأنه لا يفعلها وتارة بخبره أنه حرمها على نفسه، ومـن غـلا في الـرد عـلى القدريـة فقال: لا ينزه الرب عن فعل من الأفعال، ولا نعلم وجه امتناع الفعل منـه إلا مـن جهة خبره ـ أنه لا يفعله ـ المطابق لعلمه أنه لا يفعله وهؤلاء منعوا حقيقة ما أخـبر به من أنه كتب على نفسـه الرحمـة وحـرم على نفسـه الظلم ومثل قوله تعالى أيضـا: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2)، وقـول النبـي ﷺ في الحـديث الصحيـح: « **يا معاذ ما حق الله على العباد؟** » قلت: الله ورسوله أعلم قـال: « **حقـه علـيهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، أتدرى ما حق العبـاد عـلى الله إن هـم فعلـوا ذلـك؟** » قلت: الله ورسوله أعلم قال: « **حقهم عليه ألا يعذبهم** »، فهذا هو الحق الذي أحقه على نفسه نظير تحريمه على نفسه وإيجابه على نفسه وليست هذه كتابـة التقـدير (3). وإيجابه وكفايته وإحقاقه على نفسه يستلزم حبه ورضاه ويستلزم وقوعـه. وتحريمـه يستلزم بغضه وذلك ينفي وقوعه.

أما ما يحبه ويبغضه من أفعال عباده فذلك نوع آخر ففرق بين فعله هو وفعل عبـده المخلوق له والذي لا يقوم به سبحانه بل يقوم بغيره ويوصف به غيره.

4- **إثبات الحكم والغايات وإثبات الأسـباب شرعًـا وقـدرًا وإثبـات العلـل والمصـالح والمناسبات.**

5- **لا يحتج بالقدر على الذنب، ولا يعتذر عن الذنب بالقدر، ولا نرضى بالذنب بحجة أنه قد أمرنا بالرضا به والتسليم له، بل نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونجاهد في سبيل الله أهل الكفر والنفاق** فنجتهد في إقامة دينه سـبحانه مسـتعينين بـه دافعـين مـزيلين بذلك ما قدر من السيئات، دافعين بذلك ما قد يخاف مـن ذلـك كـما يزيـل الإنسـان

---

(1) هي قبيحة في ذاتها، من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ [النحل: 90] لا يصح أن يقال: إن الله يأمر بما أمر به وينهى عما نهى عنه بل ما يأمر به حسن فى ذاته ولذا أمر به، وما نهى عنه قبيح فى ذاته ولذا نهى عنه كذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف: 28].
ولا يجوز أن يكون معناه: إن الله لا يأمر بما لا يأمر به، ولكن معناه: إن الله لا يأمر بما علم بالعقل فحشه.

(2) سورة الروم، الآية: 47.

(3) يعني أنه لو شاء لفعل ولكنه لم يشأ ذلك لأنه لا يحبه.

الجوع الحاضر بالأكل ويدفع به الجوع المستقبل، وكذلك إذا أزال البرد ودفعه باللباس وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه. كما قالوا للنبي ﷺ: أرأيت إلى أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال: « **هي من قدر الله** » وفي الحديث: أن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض.

فما دمنا قد قررنا أن الخلق للرب والفعل للعبد في أفعال العباد فنحن نرضى ونصبر على خلق الرب مع مدافعة المصائب من جوع أو فقر أو مرض أو خوف وما يترتب على ذلك من دفع لها من قدر الله كما يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: «نازعت أقدار الحق بالحق للحق».

أما أفعال العباد من الذنوب فلا نرضى بها ولا نستسلم لها ولا نصبر عليها بل نسخطها ولا نقرها ونجاهدها أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر ومجاهدة للكفار والمنافقين في سبيل الله ونوالى أولياءه المؤمنين ونعادي أعداءه الكافرين ونحب ونبغض في الله تعالى ولا نسوي بحجة القدر بين من فرق الله بينهم: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (1)، ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (2).

ومحاجة آدم لموسى لم يحتج آدم فيها على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر فإن هذا لا يقوله مسلم ولا يقوله عاقل، ولو كان عذرًا لكان عذرا لإبليس وقوم نوح وعاد وكل كافر ولا نقول: لام موسى آدم من أجل الذنب، فإن آدم تاب منه والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولكن لامه لأجل المصيبة التي وقعت لهم، ولما كان العمل والمصيبة مقدرًا، فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له فإنه من تمام الرضا بالله ربًا.

وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب وإذا أذنب فعليه أن يستغفر الله ويتوب من صنوف المعايب ويصبر على المصائب.

قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ (3). وإذا كانت **الأشاعرة** قد مالت إلى الإرجاء والجبر مما هون على الأمة بعد ذلك الأمر والنهي والوعد والوعيد. فكذلك فعلت **المتصوفة** وذهبوا في ذلك إلى أبعد المدى، **ولما كانت السيطرة والغلبة في**

(1) سورة الحشر، الآية: 22.
(2) سورة الجاثية، الآية: 21.
(3) سورة غافر، الآية: 55.

التوجيه على المسلمين طوال قرون طويلة للتفكير الصوفي مع علم الكلام الأشـعري فقـد أحدث ذلك أثره وترك تراكماته عبر القرون في حياة المسلمين.

وعمومًـا فالمعتزلـة غـالوا في التنزيـه وقصرـوا في القـدر، فـأثبتوا حمـدًا بـلا ملـك، والأشاعرة غالوا في القدر وقصروا في التنزيه فأثبتوا ملكًا بـلا حمـد، والسـلف لم يعـوزهم إثبات القدر إلى نفى التنزيه في الأفعال ولم يفرقوا بين تنزيه الأفعال فأثبتوا لله تعالى عمـوم الملك وعموم الحمد [1].

6- **التلازم إنما يكون بين الحب والرضـا والمشـيئة الشرـعية في أفعـال العبـاد.** ولكـن لا يقتضى ذلك الوقوع. لرجوع ذلك إلى المشيئة القدرية وذلك إرادة الابـتلاء مـن الله ﷻ لعبيده كذلك لا يقع في ملكه سبحانه إلا ما يشاء مشيئة قدرية ولا تـلازم بينهـا وبين المشيئة الشرعية وحب الله سبحانه ورضاه، وذلك أيضـا لإرادة الابـتلاء منـه سبحانه لعبيده.

7- **قد بنت كل من الجبرية والقدرية شبهتها على أن خلاف المعلوم غير مقـدور فقالـت الأولى بالتكليف بما لا يطاق، وقالت الثانية بمنع تقدم علم الله وخبره عما لا يكـون مما أمر به** وقد خالفهم في ذلك جمهور الناس وقالوا: هذا منقوض عليكم بقدرة الله تعالى فإنه أخبر بقدرته على أشياء مع أنه لا يفعلها كقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[2]، وقولـه سـبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[3]، ونحو ذلك مما يخبر أنه لو شاء لفعله وإذا فعله فإنما يفعله إذا كان قـادرا عليـه فـدل القرآن على أنه قادر عليه يفعلـه إذا شـاء مـع أنـه لا يشـاؤه وكـذلك أفعـال العبـد ومقدوراته يعلمها الله على ما هي عليه فيعلمها ممكنة مقدورة للعبد غير واقعـة ولا كائنة لعدم إرادة العبد لها أو لبغضه إياها ونحو ذلك لا لعجزه عنها.

واستطاعة العبد على نوعين:

الاستطاعة المصححة للفعل وهى مناط الأمر والنهى كقولـه سـبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[4]، وهذه يجب ألا تقارن الفعل.

---

(1) أعلام الموقعين.
(2) سورة المؤمنون، الآية: 18.
(3) سورة هود، الآية: 118.
(4) سورة آل عمران، الآية: 97.

واستطاعة أخرى مقارنة للفعل كقوله سبحانه: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (1).

ومن لم يستطع التفريق بين الاستطاعتين للعبد يقولون: كلف أبو لهب أن يؤمن مع أنه لن يؤمن احتجاجًا للتكليف بما لا يطاق والحقيقة أن أبا لهب أخبر بانقطاع تكليفه.

ولا تعارض بين إثبات العدل وإثبات سبق العلم والمشيئة للرب ﷻ ولا بين ذلك وبين إثبات اختيار العبد ومسؤوليته عن فعله كما أخبرت النصوص ولا نتكلف بحث كيف يكون ذلك ؛ لأن ذلك راجع إلى صفات الله التي لا ندرى كنهها كما لا ندرك كنه ذاته ﷻ.

---

(1) سورة الكهف، الآيتان: 100-101.

الفصل الثالث
التوحيد في العبادة
(التوحيد العملي)

التوحيد نوعان:

1 – **خبري معرفي قولي اعتقادي** يسمى إيمان أو توحيد اعتقاد أو توحيد ربوبية أو تصديق أو قول وتشير إليه سورة الإخلاص ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

2 – **إرادي قصدي طلبي** ويسمى إسلام أو توحيد عبادة أو إفراد الله بالعبادة أو توحيد ألوهية أو انقياد أو عمل وتشير إليه سورة الإخلاص ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾.

نحاول في هذا الفصل بمشيئة الله أن نبين التوحيد الذي التزمه السلف والأئمة ودعوا لله وجاهدوا فيه ؛ مع التركيز على التوحيد العملي الذي أغفله المتكلمون والصوفية ومن سار على دربهم.

ونبدأ بعرض أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم من خلال بعض الكتب والرسائل والفتاوى التي تناولا فيها هذه القضية ثم نستخلص أهم النتائج التي عرضنا لها خلال ذلك.

فبعد أن يعرض الإمام ابن القيم لضلالات الطوائف المختلفة في باب التوحيد يبدأ في بيان حقيقة التوحيد عند أهل السنة والجماعة.

فيقول ابن القيم [1] عن التوحيد الذي دعت إليه الرسل:

« وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه فوراء ذلك وهو نوعان:

1- توحيد في المعرفة والإثبات.

2- توحيد في المطلب والقصد.

فالنوع الأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وعلوه فوق سماواته على عرشه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح كما في أول سورة الحديد وسورة طه وآخر سورة الحشر وأول سورة تنزيل السجدة وأول سورة آل عمران وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

والنوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾، وقوله: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ [2]، وأول سورة [تنزيل الكتاب] وآخرها، وأول سورة يونس ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام.

وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولًا كليًا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في أمره ونهيه. فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

---

(1) مدارج السالكين، جـ3، ص 449 – 450 (طبعة دار الكتاب العربي).
(2) سورة آل عمران، الآية: 64.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم لذلك قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ (1).

إلى أن يقول (2): « فهذا التوحيد هو توحيد الرسل وعدلهم: إثبات الصفات، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإثبات القدر والحكم والغايات المطلوبة المحمودة بفعله وأمره، لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية الذي هو إنكار الصفات وحقائق الأسماء الحسنى وعدلهم الذي هو التكذيب بالقدر أو نفي الحكم والغايات والعواقب الحميدة التي يفعل الله لأجلها ويأمر ». أ هـ.

ويقول الإمام ابن القيم (3): « وهذا الإفراد نوعان: أحدهما:

- **إفراد في الاعتقاد والخبر وذلك نوعان أيضًا:**

أحدهما: إثبات مباينة الرب تعالى للمخلوقات وعلوه فوق عرشه من فوق سبع سموات كما نطقت به الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها وأخبرت به جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم.

والثاني: إفراده سبحانه وتعالى بصفات كماله وإثباتها له على وجه التفصيل كما أثبتها لنفسه وأثبتها له رسله منزهة عن التعطيل والتحريف والتمثيل والتكييف والتشبيه، بل نثبت له سبحانه حقائق الأسماء والصفات وننفي عنه مماثلة المخلوقات، إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل ولا تحريف: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ (4) .

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 18- 19.
(2) مدارج السالكين، جـ3، ص 455.
(3) مدارج السالكين، جـ3، ص 445-451.
(4) سورة الشورى، الآية: 11.

وفي هـذا النـوع يكـون إفـراده سـبحانه بعمـوم قضـائه وقـدره لجميـع المخلوقات ـ أعيانها وصفاتها وأفعالها ـ وأنهـا واقعـة كلهـا بمشـيئته وقدرتـه وعلمه وحكمته. فيباين صاحب هـذا الإفـراد سـائر فـرق أهـل الباطـل مـن الاتحادية والحلولية والجهمية الفرعونية الذين يقولون: لـيس فـوق السـموات رب يعبد ولا على العرش إله يصلى له ويسجد. والقدرية الذين يقولون: إن الله لا يقدر على أفعال العباد من الملائكة والإنـس والجـن، ولا عـلى أفعـال سـائر الحيوانات بل يقع في ملكه ما لا يريد، ويريد ما لا يكون فيريد شيئًا لا يكـون، ويكون الشيء بغير إرادته ومشيئته، والله سبحانه وتعالى أعلم.

• **والنوع الثاني من الإفراد:** إفراد القديم [1] عن المحدث بالعبادة من التأله والخوف والرجاء والحب والتعظيم والإنابة والتوكـل وابتغـاء الوسـيلة إليـه. فهذا الإفراد وذلـك الإفـراد بهـما بعثـت الرسـل وأنزلـت الكتـب وشرعـت الشرائع، ولأجل ذلك خلقت السموات والأرض والجنة والنـار وقـام سـوق الثواب والعقاب.

فتفريد القديم [2] سبحانه عن المحدث:

1 – في ذاته وصفاته وأفعاله.

2 – وفي إرادته وحده ومحبته وخوفه ورجائـه والتوكـل عليـه والاسـتعانة بـه والحلف به والنذر له والتوبة إليـه والسـجود لـه والتعظـيم والإجـلال وتوابع ذلك ». أ هـ.

يقول ابن تيمية في الفتاوى الكبرى[3]:

« **وأما التوحيد (العملي)** الذي ذكره الله في كتابه وأنزل به كتبه وبعث به رسله واتفق عليه المسلمون من كل ملة فهو كما قال الأئمة: شهادة أن لا إله إلا الله، **وهو عبادة الله وحده لا شريك له** كما بين ذلك بقوله: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ

(1) (2) الأولىٰ وَصْفه سبحانه وتعالى بما وَصَفَ به نفسه؛ أي بـ: «الأول» بدلا من لفظ: «القديم».

(3) الفتاوى الكبرى، جـ5، ص 248– 251.

﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1)، فأخبر أن الإله إله واحد لا يجوز أن يتخذوا إلها غيره فلا يعبد إلا إياه كما قال في سورة أخرى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ (2)، كما قال: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴾ إلى قوله: ﴿ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴾ (3)، وكما قال: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ (4)، وكما قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ (5).

والشرك الذي ذكره الله في كتابه إنما هو عبادة غيره من المخلوقات كعبادة الملائكة والكواكب أو الشمس أو القمر أو الأنبياء أو تماثيلهم أو قبورهم أو غيرهم من الآدميين ونحو ذلك مما هو كثير في هؤلاء الجهمية ونحوهم ممن يزعم أنه محق في التوحيد وهو أعظم الناس إشراكًا.

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (6)، وقال: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(7) ، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن

(1) سورة البقرة، الآية: 163.
(2) سورة النحل، الآية: 51.
(3) سورة الإسراء، الآيات: 22- 39.
(4) سورة الزمر، الآيات: 1-3.
(5) سورة الفرقان، الآية: 68.
(6) سورة الزمر، الآية: 38.
(7) سورة الزمر، الآيات: 64-66.

دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ (1)، وقال: ﴿ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴾ (2)، وقال: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴾ (3)، وقال: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴾ (4)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾ (5). وقال ابن عباس وعطاء وعكرمة ومجاهد: يسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون: الله وهم مع هذا يعبدون غيره ويشركون به ويقولون: له ولد وثالث ثلاثة **فكان الكفار يقرون بالربوبية وهو نهاية ما يثبته هؤلاء المتكلمون إذا سلموا من البدع فيه وهم كانوا مع هذا مشركين ؛ لأنهم كانوا يعبدون غير الله.**

وقال تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾ (6)، وقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (7)، وقال: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ ﴾ (8).

فبين الله سبحانه وتعالى أنه بهذا التوحيد بعث جميع الرسل وأنه بعث إلى كل أمة رسولًا به وهذا هو الإسلام الذي لا يقبل الله لا من الأولين ولا من الآخرين دينا غيره قال تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(1) سورة الزمر، الآية: 45.
(2) سورة الإسراء، الآية: 46.
(3) سورة ص، الآيات: 4-7.
(4) سورة الصافات، الآيتان: 35-36.
(5) سورة يوسف، الآية: 106.
(6) سورة الزخرف، الآية: 45.
(7) سورة الأنبياء، الآية: 25.
(8) سورة النحل، الآية: 36.

وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (1) .

فدين الله أن يدينه العباد ويدينون له فيعبدونه ويطيعونه(2) وذلك هو الإسلام له فمن ابتغى غير هذا دينًا فلن يقبل منه. وكذلك قال في الآية الأخرى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (3)، فذكر أن الدين عند الله الإسلام بعد إخباره بشهادته وشهادة الملائكة وأولوا العلم أنه لا إله إلا هو، **والإله هو المستحق للعبادة**، فأما من اعتقد في الله أنه رب كل شيء وخالقه وهو مع هذا يعبد غيره فإنه مشرك بربه متخذ من دونه إلهًا آخر فليست الإلهية هي: الخلق أو القدرة على الخلق أو القدم كما يفسرها هؤلاء المبتدعون في التوحيد من أهل الكلام. إذ المشركون الذين شهد الله ورسوله بأنهم مشركون من العرب وغيرهم لم يكونوا يشكون في أن الله خالق كل شيء وربه، فلو كان هذا هو الإلهية لكانوا قائلين: إنه لا إله إلا الله.

فهذا موضع عظيم جدًا ينبغي معرفته لما قد لبس على طوائف من الناس أصل الإسلام حتى صاروا يدخلون في أمور عظيمة هي شرك ينافي الإسلام لا يحسبونها شركًا وأدخلوا في التوحيد والإسلام أمورًا باطلة ظنوها من التوحيد وهي تنافيه وأخرجوا من الإسلام والتوحيد أمورًا عظيمة لم يظنوها من التوحيد وهي أصله. فأكثر هؤلاء المتكلمين لا يجعلون التوحيد إلا ما يتعلق بالقول والرأي واعتقاد ذلك دون ما يتعلق بالعمل والإرادة واعتقاد ذلك(4).

(1) سورة آل عمران، الآيات: 83-85.
(2) فسر ابن تيمية هنا العبادة بالطاعة وهي أحد أركان الحد ومعنى الطاعة عندما ترجع إلى الحد هو: التزام وقبول الأحكام، وعندما ترجع إلى الفروع فهي: الدخول في الأعمال.
(3) سورة آل عمران، الآيتان: 18- 19.
(4) بمعنى الإمساك والحفظ وليس بمعنى المعرفة.

بل التوحيد الذي لا بد منه لا يكون إلا بتوحيد الإرادة والقصد وهو توحيد العبادة وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله: أن يقصد الله بالعبادة ويريده بذلك دون ما سواه وهذا هو الإسلام (حده الذي لا يتحقق بغيره).

فإن الإسلام يتضمن أصلين:

أحدهما: الاستسلام لله.

والثاني: أن يكون ذلك له سالمًا فلا يشركه أحد في الإسلام له، وهذا هو الاستسلام لله دون ما سواه، وسورة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ تفسر ذلك، **ولا ريب أن العمل والقصد مسبوق بالعلم**. فلابد أن يعلم ويشهد أن لا إله إلا الله، وأما التوحيد القولي الذي هو الخبر عن الله ففي سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ التي تعدل ثلث القرآن وفيها اسمه الأحد الصمد. وكل من هذين الاسمين يدل على نقيض مذهب هؤلاء الجهمية كما قد بيناه في موضعه.

وعبادة الله وحده يدخل فيها كمال المحبة لله وحده وكمال الخوف منه وحده وكمال الرجاء له والتوكل عليه وحده كما بين ذلك القرآن في غير موضع. فكل ذلك من أصول التوحيد الذي أوجبه الله على عباده. وبذلك يكون الدين كله لله كما أمر الله رسله والمؤمنين بالقتال إلى هذه الغاية حيث يقول: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [1]». أ هـ.

ويقول ابن تيمية في الرسالة التدمرية [2]:

« فالكلام في باب (التوحيد) و(الصفات) هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات. والكلام في (الشرع) و (القدر) هو من باب الطلب والإرادة الدائر بين الإرادة والمحبة وبين الكراهية والبغض نفيًا وإثباتًا. والإنسان يجد في نفسه الفرق بين النفي والإثبات والتصديق والتكذيب وبين الحب والبغض والحض والمنع حتى إن الفرق بين هذا النوع وبين النوع الآخر معروف عند العامة والخاصة وعند أصناف المتكلمين في العلم كما ذكر ذلك

(1) سورة الأنفال، الآية: 39.
(2) الرسالة التدمرية، ص 3 – 4.

الفقهاء في كتاب الأَيمان وكما ذكره المقسمون للكلام من أهل النظر والنحو والبيان **فذكروا أن الكلام نوعان خبر وإنشاء:**

1 ـ **الخبر**: دائر بين النفي والإثبات.

2 ـ **والإنشاء**: أمر ونهي وإباحة.

وإذا كان كذلك فلابد للعبد أن يثبت لله ما يجب إثباته له من صفات الكمال وينفي عنه ما يجب نفيه مما يضاد هذه الحال ولا بد له في أحكامه من أن يثبت خلقه وأمره فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته وعموم مشيئته ويثبت أمره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه من القول والعمل، ويؤمن بشرعه وقدره إيمانًا خاليًا من الزلل وهذا يتضمن (التوحيد في عبادته) وحده لا شريك له وهو التوحيد في القصد والإرادة والعمل، والأول يتضمن (التوحيد في العلم والقول). كما دل على ذلك سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، ودل على الآخر سورة ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾، وهما سورتا الإخلاص وبهما كان النبي ﷺ يقرأ بعد الفاتحة في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك ».أ هـ.

وبعد أن يتكلم ابن تيمية عن النوع الأول من التوحيد وهو توحيد الصفات، يتكلم عن النوع الثاني من التوحيد وهو التوحيد في العبادات.

فيقول (1): « وأما الأصل الثاني وهو التوحيد في العبادات المتضمن للإيمان بالشرع والقدر جميعًا فنقول:

لابد من الإيمان بخلق الله وأمره، فيجب الإيمان بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وأنه على كل شيء قدير وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله. وقد علم ما سيكون قبل أن يكون، وقدر المقادير وكتبها حيث شاء كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (2)، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « **إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء** » .

---

(1) الرسالة التدمرية، ص 52 وما بعدها.
(2) سورة الحج، الآية: 70.

ويجب الإيمان بأن الله أمر بعبادته وحده لا شريك له كما خلق الجن والإنس لعبادته، وبذلك أرسل رسله وأنزل كتبه، وعبادته تتضمن كمال الذل والحب له وذلك يتضمن كمال طاعته: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ (1)، وقد قال تعالى: ﴿ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ ﴾(2)، وقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ (3)، وقال: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾ (4)، وقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (5)، وقال: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ﴾ (6)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ (7) .

فأمر الرسل بإقامة الدين وأن لا يتفرقوا فيه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: « **إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، والأنبياء أخوة لعلات، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي** ».

وهذا الدين هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله دينًا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام. قال تعالى عن نوح: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ

(1) سورة النساء، الآية: 80.
(2) سورة آل عمران، الآية: 31.
(3) سورة النساء، الآية: 64.
(4) سورة الزخرف، الآية: 45.
(5) سورة الأنبياء، الآية: 25.
(6) سورة الشورى، الآية: 13.
(7) سورة المؤمنون، الآيتان: 51-52.

مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (1)، وقال عن إبراهيم: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (2)، وقال عن موسى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (3)، وقال في خبر المسيح: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (4) ، وقال فيمن تقدم من الأنبياء: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ (5)، وقال عن بلقيس إنها قالت: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (6) .

فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا ومن لم يستسلم له كان مستكبرًا عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده. فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت، فإذا أمر في أول الأمر باستقبال الصخرة ثم أمرنا ثانيًا باستقبال الكعبة كان كل من الفعلين ـ حين أمر به ـ داخلًا في الإسلام، فالدين هو الطاعة والعبادة له في الفعلين، وإنما يتنوع بعض صور الفعل وهو وجهة المصلي. فكذلك الرسل وإن تنوعت الشرعة والمنهاج والوجه والمنسك، فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحدًا كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد، والله تعالى جعل في دين الرسل أن أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به وآخرهم يصدق بأولهم ويؤمن به، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا

(1) سورة يونس، الآيتان: 71-72.
(2) سورة البقرة، الآيات: 130-132.
(3) سورة يونس، الآية: 84.
(4) سورة المائدة، الآية: 111.
(5) سورة المائدة، الآية: 44
(6) سورة النمل، الآية: 44.

مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (1)، قال ابن عباس: لم يبعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه. وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴾ (2)، وجعل الإيمان بهم متلازمًا وكفر من قال: إنه آمن ببعض وكفر ببعض قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ ﴾ (3).

إلى أن يقول: وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى هل هم مسلمون؟ أم لا ؟ وهو نزاع لفظي فإن الإسلام الخاص الذي بعث الله به محمدًا ﷺ المتضمن لشريعة القرآن ليس عليه إلا أمة محمد ﷺ والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا، وأما الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبيًا فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء.

ورأس الإسلام مطلقًا شهادة أن لا إله إلا الله وبها بعث جميع الرسل كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾ (4)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (5)، وقال عن الخليل: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 81.
(2) سورة المائدة، الآية: 48.
(3) سورة النساء، الآيتان: 150-151.
(4) سورة النحل، الآية: 36.
(5) سورة الأنبياء، الآية: 25.

كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ (1)، وقال تعالى عنه: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (2)، وقال تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ (3)، وقال تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾(4)، وذكر عن رسله كنوح وهود وصالح وغيرهم أنهم قالوا لقومهم: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ ﴾ (5)، وقال عن أهل الكهف: ﴿ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴿١٣﴾ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴾ إلى قوله: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ (6)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ (7)، ذكر ذلك في موضعين من كتابه.

وقد بين في كتابه الشرك بالملائكة والشرك بالأنبياء والشرك بالكواكب والشرك بالأصنام وأصل الشرك: الشرك بالشيطان فقال عن النصارى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (8)، وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ

(1) سورة الزخرف، الآيات: 26-28.
(2) سورة الشعراء، الآيات: 75-77.
(3) سورة الممتحنة، الآية: 4.
(4) سورة الزخرف، الآية: 45.
(5) سورة هود، الآية: 50.
(6) سورة الكهف، الآيتان: 13-14.
(7) سورة النساء، الآية: 48.
(8) سورة التوبة، الآية: 31.

قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ ﴾ (1)، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ (2)، فبين أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا كفر. ومعلوم أن أحدًا من الخلق لم يزعم أن الأنبياء والأحبار والرهبان والمسيح ابن مريم شاركوا الله في خلق السموات والأرض، بل ولا زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال. بل ولا أثبت أحد من بني آدم إلهًا مساويًا لله في جميع صفاته، بل وعامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس شريكه مثله بل عامتهم يقرون أن الشريك مملوك له، سواء كان ملكًا أو نبيًا أو كوكبًا أو صنمًا، كما كان مشركو العرب يقولون في تلبيتهم: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك)، فأهلَّ رسول الله ﷺ بالتوحيد وقال: « **لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك** ».

وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والديانات فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له في خلق جميع المخلوقات ولا مماثل له في جميع الصفات بل من أعظم ما نقلوا في ذلك قول الثنوية الذين يقولون بالأصلين: (النور) و (الظلمة) وأن النور خلق الخير والظلمة خلقت الشر، ثم ذكروا لهم في الظلمة قولين: **أحدهما**: إنها محدثة فتكون من جملة المخلوقات له. **والثاني**: إنها قديمة لكنها لم تفعل إلا الشر فكانت ناقصة في ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور، وقد أخبر الله سبحانه عن المشركين من إقرارهم بأن الله خالق المخلوقات ما بينه في كتابه

(1) سورة المائدة، الآيتان: 116-117.

(2) سورة آل عمران، الآيتان: 79 -80.

فقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ (1) مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (2)، وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (3)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (4).

إلى أن يقول: **فإن المشركين إذا أقروا بذلك كله (5) لم يخرجوا من الشرك الذي وصفهم به في القرآن وقاتلهم عليه الرسول ﷺ، بل لابد أن يعترفوا (6) بأن لا إله إلا الله** وليس المراد بالإله هو القادر على الاختراع دون غيره كما ظنه من ظنه من المتكلمين حيث ظن الإلهية هي القدرة على الاختراع وأن من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أن لا إله إلا الله فإن المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون. كما تقدم بيانه بل الإله الحق هو الذي يستحق بأن يعبد **فهو إله بمعنى مألوه لا بمعنى آله.**

والتوحيد: أن نعبد الله وحده لا شريك له.

والإشراك: أن تجعل مع الله إلهًا آخر.

---

(1) تدعون: تعبدون.
(2) سورة الزمر، الآية: 38.
(3) سورة المؤمنون، الآيات: 84-89.
(4) سورة يوسف، الآية: 106.
(5) التوحيد العلمي أو المعرفي أو القولي.
(6) إقرارًا خبريًا والتزاميًا.

إلى أن يقول: فهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه فإن أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر، وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وقد وقع كثير من الناس في الإخلال بحقيقة هذين الأصلين أو أحدهما مع ظنه أنه في غاية التحقيق والتوحيد والعلم والمعرفة، فإقرار المرء بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه لا ينجيه من عذاب الله إن لم يقترن به إقراره بأنه لا إله إلا الله فلا يستحق العبادة أحد إلا هو وأن محمدًا رسول الله فيجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر ». أهـ.

ويقول [1]: « والحقيقة (حقيقة الدين)، دين رب العالمين هي ما اتفق عليه الأنبياء والمرسلون، وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج، فالشرعة هي الشريعة قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2]، وقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[3]، والمنهاج هو الطريق قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [4]، فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر، والمنهاج هو الطريق الذي سلك فيه، **والغاية المقصودة هي حقيقة الدين وهي عبادة الله وحده لا شريك له وهي حقيقة دين الإسلام وهي أن يستسلم العبد لله رب العالمين لا يستسلم لغيره** فمن استسلم لغيره كان مشركًا. والله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[5].

---

(1) مجموع الفتاوى جـ11, ص218-220

(2) سورة المائدة، الآية: 48.

(3) سورة الجاثية، الآيتان: 18- 19.

(4) سورة الجن، الآيتان: 16-17.

(5) سورة غافر، الآية: 60.

ودين الإسلام دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ (1)، عام في كل زمان ومكان. فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الإسلام الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له. قال تعالى عن نوح: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾إلى قوله: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (2)، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (3)، وقال تعالى عن موسى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾(4)، وقال يوسف: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾(5)، وقالت بلقيس: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (6)، وقال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾ (7) ، وقال الحواريون: ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾(8) .

فدين الأنبياء واحد وإن تنوعت شرائعهم كما في الصحيحين عن النبي ﷺ: « **إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد** »، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ﴾(9)، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 85.
(2) سورة يونس، الآيتان: 71- 72.
(3) سورة البقرة، الآية: 130.
(4) سورة يونس، الآية: 84.
(5) سورة يوسف، الآية: 101.
(6) سورة النمل، الآية: 44.
(7) سورة المائدة، الآية: 44.
(8) سورة آل عمران، الآية: 52.
(9) سورة الشورى، الآية: 13.

هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرًاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ (1) ». أ هـ.

وهكذا يفسر ابن تيمية **أصل الدين بالإسلام العام** وهو القدر الذي اتفق عليه الأنبياء والمرسلون لا يختلف من رسالة إلى أخرى وهو **عبادة الله وحده لا شريك له**. وهو حقيقة دين الإسلام الذي هو **الاستسلام المطلق** الذي لا يتقيد بطاعة معينة. إنما هو مطلق معنى الطاعة وهو يعنى قبول شرع الله ورفض ما سواه، والعبادة بمعناها العام وهو فعل المأمور وترك المحظور تختلف من رسالة إلى أخرى. وكذلك بمعناها الخاص، معنى النسك. وكل العبادات بمعنى النسك تأخر فرضها عن التوحيد فالصلاة في العام العاشر من البعثة والصوم في العام الثاني من الهجرة وبعده الحج.. إلخ.

ويقول ابن تيمية(2): « وكل واحد من المستكبرين والمشركين ليسوا مسلمين، بل الإسلام هو الاستسلام لله وحده، ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام ويتضمن إخلاصه لله، وقد ذكر ذلك غير واحد من أهل العربية كأبي بكر بن الأنبارى وغيره، ومن المفسرين من يجعلهما قولين كما يذكر طائفة منهم البغوي إن المسلم هو: المستسلم لله، وقيل: هو المخلص. والتحقيق أن المسلم يجمع هذا فمن لم يستسلم لله لم يكن مسلمًا ومن استسلم لغيره كما يستسلم له لم يكن مسلمًا، ومن استسلم له وحده فهو المسلم، كما في القرآن: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (3)، وقال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾ (4).

والاستسلام له يتضمن الاستسلام لقضائه وأمره ونهيه: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (5). أ هـ.

---

(1) سورة المؤمنون، الآيات: 51–53.
(2) النبوات، ص 73 – 74.
(3) سورة البقرة، الآية: 112.
(4) سورة النساء، الآية: 125.
(5) سورة يوسف، الآية: 90.

ويقول: « والله أرسل رسوله بالإسلام والإيمان بعبادة الله وحده وتصديق الرسول فيما أخبر فالأعمال عبادة لله والعلوم تصديق الرسول وكان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص، وتارة: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ [1].

ويقول [2]: « والله أرسل رسوله بالإسلام والإيمان بعبادة الله وحده وتصديق الرسول فيما أخبر فالأعمال عبادة لله والعلوم تصديق الرسول وكان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص، وتارة ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾[3] فإنها تتضمن الإيمان والإسلام. وبالآية: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ ﴾ [4]». أ هـ.

ويقول [5]: « والإرادة النافعة إرادة ما أمروا به، وذلك عبادة الله وحده لا شريك له فهذا هو السعادة. **إلى أن يقول**: وذلك إنما يكون بتصديق رسله وطاعتهم. فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين: الإسلام والإيمان. عبادة الله وحده وتصديق رسله وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قال تعالى: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [6]، قال أبو العالية هما خصلتان يسأل عنهما كل أحد: مَن كنت تعبد ؟ وبماذا أجبت المرسلين ؟) ». أ هـ.

ويقول [7]: « وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [8]، والإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين ومن اتبعهم من الأمم ـ كما أخبر الله بنحو ذلك في غير موضع من

---

(1) سورة البقرة، الآية: 136.
(2) النبوات، ص 86.
(3) سورة البقرة، الآية: 136.
(4) سورة آل عمران، الآية: 64.
(5) المصدر السابق، ص 91.
(6) سورة الأعراف، الآية: 6.
(7) المصدر السابق، ص 93 – 94.
(8) سورة آل عمران، الآية: 85.

كتابه، فأخبر عن نوح وإبراهيم وإسرائيل أنهم كانوا مسلمين وكذلك عن أتباع موسى وعيسى وغيرهم. والإسلام هو أن يستسلم لله لا لغيره فيعبد الله ولا يشرك به شيئا، ويتوكل عليه وحده، ويرجوه ويخافه وحده، ويحب الله المحبة التامة لا يحب مخلوقًا كحبه لله، ويبغض لله، ويوالى لله، ويعادى لله.

فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلمًا ومن عبد مع الله غيره لم يكن مسلمًا وإنما تكون عبادته بطاعته وطاعة رسله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ (1)، فكل رسول بعث بشريعة فالعمل بها في وقتها هو دين الإسلام. وأما ما بدل منها فليس من دين الإسلام وإذا نسخ منها ما نسخ لم يبق من دين الإسلام كاستقبال بيت المقدس في أول الهجرة بضعة عشر شهرًا ثم الأمر باستقبال الكعبة وكلاهما في وقته دين الإسلام فبعد النسخ لم يبق دين الإسلام إلا أن يولى المصلي وجهه شطر المسجد الحرام. فمن قصد أن يصلي إلى غير تلك الجهة لم يكن على دين الإسلام ؛ لأنه يريد أن يعبد الله بما لم يأمره به ». أ هـ.

توحيد العبادة: (أركان ثلاثة):

وبعد ذلك نذكر ما قرره ابن القيم (2) في شرحه لكتاب "منازل السائرين" (للهراوى) عن (الرضا) قال:

« قال الهروي: وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: رضا العامة هو الرضا بالله ربًا وتسخط عبادة ما دونه وهذا قطب رحى الإسلام وهو يطهر من الشرك الأكبر ».

يقول ابن القيم تعقيبًا على ذلك: « الرضا بالله ربًا: أن لا يتخذ ربًا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ ﴾ (3)، قال ابن عباس: « سيدًا وإلهًا » يعني فكيف أطلب ربًا غيره وهو رب كل شيء. وقال في أول السورة: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ

(1) سورة النساء، الآية: 80.
(2) مدارج السالكين، جـ2، ص 181.
(3) سورة الأنعام، الآية: 164.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (1)، يعني معبودًا وناصرًا ومعينا وملجأ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾(2) أي: أفغير الله أبتغى من يحكم بيني وبينكم فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه وهذا كتاب سيد الحكام فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلًا كافيًا شافيًا. وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا ورسولًا ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله ربا ولا يبغى ربًا سواه، ولكنه لا يرضى به وحده وليًا وناصرًا بل يوالي من دونه أولياء ظنًا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك بل التوحيد أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء، وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته، فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون، **ومن لم يفهم الفرق بينهما فليطلب التوحيد من أساسه فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه. وكثير من الناس يبتغي غيره حكمًا يتحاكم إليه ويخاصم إليه ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاثة هي أركان التوحيد: ألا يتخذ سواه ربًا ولا إلهًا ولا غيره حكمًا.**

وتفسير الرضا بالله ربًا: أن يسخط عبادة ما دونه هذا هو الرضا بالله إلهًا هو من تمام الرضا بالله ربًا. فمن أعطى الرضا بالله ربا حقه سخط عبادة ما دونه قطعا ؛ لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية. وقوله: « وهو قطب رحى الإسلام » يعنى أن مدار رحى الإسلام على أن يرضى العبد بعبادة ربه وحده وأن يسخط عبادة غيره، وقد تقدم أن العبادة هي الحب مع الذل فكل من ذللت له وأطعته وأحببته دون الله فأنت عابد له.

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 14.

(2) سورة الأنعام، الآية: 114.

وقوله: « **وهو يطهر من الشرك الأكبر** » يعني أن الشرك نوعان: اكبر وأصغر فهذا الرضا يطهر من الأكبر، وأما الأصغر فيظهر منه نزوله منزلة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (1)، قوله (2): « وهو يصح بثلاثة شروط: أن يكون الله ﷻ أحب الأشياء إلى العبد، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة » فالحاصل أن يكون الله وحده هو المحبوب المعظم المطاع فمن لم يحبه ولم يطعه ولم يعظمه فهو متكبر عليه ومتى أحب معه وأطاع معه سواه وعظم معه سواه فهو مشرك. ومتى أفرده وحده بالحب والتعظيم والطاعة فهو عبد موحد والله أعلم » (3). أ هـ.

ثم يتكلم الشيخ الهروي عن الدرجة الثانية من الرضا ويعلق ابن القيم على معنى الدرجة الأولى بقوله: « ووجه قوله: إنه لا يدخل الإسلام إلا بالدرجة الأولى أي من الرضا. وهو ما ذكرناه ».

ويقول ابن القيم عن ركن التحاكم وهو قبول شرع الله ورفض ما سواه وهو الاستسلام لله وحده وهو التزام شريعة الرسول ﷺ جملة وعلى الغيب يقول: « إذا عرف هذا فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان.

فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾(4). فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله ﷺ وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه وحتى يسلموا لحكمه تسليمًا وهذه حقيقة الرضا بحكمه. فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان » (5). أ هـ.

---

(1) سورة الفاتحة، الآية: 5.
(2) يعنى الهروي.
(3) مدارج السالكين، جـ2، ص 181 – 182.
(4) سورة النساء، الآية: 6،5.
(5) مدارج السالكين جـ2 ص 192.

ويقول ابن القيم عن التوحيد ويذكر من أركانه الموالاة (1): « وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية على ما ذكره صاحب "المنازل" فقال بعد أن حكى كلامه عن آخره: أما التوحيد (2) الأول الذي ذكره فهو التوحيد الذي جاءت به الرسل من أولهم إلى آخرهم ونزلت به الكتب كلها وبه أمر الله الأولين والآخرين وذكر الآيات الواردة بذلك ثم قال: وقد أخبر الله عن كل رسول من الرسل أنه قال لقومه: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ (3)، وهذه أول دعوة الرسل وآخرها قال النبي ﷺ: « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله** » وقال ﷺ: «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**» والقرآن مملوء من هذا التوحيد، والدعوة إليه وتعليق السعادة والنجاة في الآخرة به وحقيقته إخلاص الدين كله لله والفناء في هذا التوحيد مقرون بالبقاء وهو أن تثبت إلهية الحق تبارك وتعالى في قلبك وتنفى إلهية ما سواه فتجمع بين النفي والإثبات ».

فالنفي هو الفناء والإثبات هو البقاء. وحقيقته أن تفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه وبمحبته عن محبة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه وبطاعته عن طاعة ما سواه وكذلك بموالاته وبسؤاله والاستغناء به والتوكل عليه ورجائه ودعائه والتفويض إليه والتحاكم إليه واللجوء إليه والرغبة فيما عنده.

الركن الأول: قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (4)، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ ﴾ (5)، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى

(1) مدارج السالكين جـ3 ص 482.
(2) الذي يطهر من الشرك الأكبر.
(3) سورة هود، الآية: 50.
(4) سورة الأنعام، الآية: 14.
(5) سورة الأنعام، الآية: 164.

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (1).

الركن الثاني: وقال تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ ﴾ (2)، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (3).

الركن الثالث: قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (4)، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴾ (5)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴾ (6)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾(7)، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (8)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾(9)، وقال عن أصحاب الكهف: ﴿ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴾ (10)، وقال عن صاحب يس: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا

(1) سورة الزمر، الآيات: 64-66.
(2) سورة الأنعام، الآية: 114.
(3) سورة الأنعام، الآية: 161.
(4) سورة الأنعام، الآيتان: 162-163.
(5) سورة الشعراء، الآية: 213.
(6) سورة الإسراء، الآية: 39.
(7) سورة القصص، الآية: 88.
(8) سورة الزمر، الآية: 38.
(9) سورة الزمر، الآية: 2.
(10) سورة الكهف، الآية: 14.

مُّحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴾ (1)، وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ ﴾ (2) ، وقال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ (3) ، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (4)، وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ (5)، وهذا في القرآن كثير بل هو أكثر من أن يذكر وهو أول الدين وآخره وظاهره وباطنه وذروة سنامه وقطب رحاه، وأمرنا تعالى أن نتأسى بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته كما قال تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ (6) .

إلى أن يقول: وإذا تدبرت القرآن من أوله إلى آخره لرأيته يدور على هذا التوحيد وحقوقه وتقريره. قال شيخنا: والخليلان هما أكمل الخاصة توحيدًا.

إلى أن يقول: وكمال هذا التوحيد هو ألا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلا بل يبقى العبد مواليًا لربه في كل شيء يحب من أحب ويبغض من أبغض وما أبغض ويوالي من يوالي ويعادي من يعادي ويأمر بما أمر به وينهى عما نهى عنه » (7). أ هـ.

---

(1) سورة يس، الآيتان: 22-23.
(2) سورة الشورى، الآية: 9.
(3) سورة الزمر، الآية: 43،44.
(4) سورة الحج، الآيتان: 73-74.
(5) سورة النساء، الآية: 36.
(6) سورة الممتحنة، الآية: 4.
(7) مدارج السالكين جـ3 ص 482 - 485.

وعلى ضوء النقول السابقة ـ وغيرها ـ يمكن أن نستخلص بعض النتائج الأساسية:

يقرر ابن تيمية في "الرسالة التدمرية": أن التوحيد الذي قرره المتكلمون ليس هو كل التوحيد ولا يتم به الواجب ولا يكون به المسلم مسلمًا، بل لابد مع التوحيد القولي العلمي المعرفي من التوحيد الإرادي القصدي الطلبي العملي، وهو توحيد العبادة فهما متلازمان لا يقبل أحدهما بدون الآخر.

وإذا كان توحيد الخبر والاعتقاد القولي الذي تعبر عنه سورة: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، يتضمن توحيد الذات والصفات والأفعال وذلك يشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وبالجملة (تصديق خبر الرسول جملة وعلى الغيب) ومع وصف الرب سبحانه وتعالى بالكمالات وتنزيهه عن النقائص التي ألحقها به المشركون من الصاحبة والولد واتخاذ الملائكة إناثا وما جعلوا بينه وبين الجنة من النسب إلى غير ذلك تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا. فلابد من معرفة أركان النوع الثاني من التوحيد: وهو التوحيد العملي توحيد العبادة.

وفي هذه الرسالة يتكلم ابن تيمية عن ركنين من أركان هذا التوحيد:

1 – **الركن الأول**: هو قبول شرع الله ورفض ما سواه وهو معنى الإسلام العام الذي أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب.

2 – **الركن الثاني**: هو نفي النسك عن غير الله ﷻ.

وفي بيان معنى الركن الأول فسر ابن تيمية **الإسلام العام** بأنه الاستسلام وفسر الاستسلام بالطاعة ثم قصرها على الله وحده فإذا جعلت لغير الله معه أو من دونه كانت كفرًا، شركًا، أو استكبارًا وكلاهما كفر، والطاعة نوعان:

أ – نوع هو قبول الحكم والدخول تحت أحكام التكليف للمولى ﷻ وحده.

ب – نوع هو الدخول في الأعمال.

والنوع الثاني ليس هو المقصود من كلام ابن تيمية ؛ لأن المخالفة فيه لا تكون كفرًا إلا على مذهب الخوارج وهو معلوم البطلان من الدين ضرورة فيكون كلامه مقصورًا على النوع الأول.

ويقرر ابن تيمية في "اقتضاء الصراط المستقيم"[1]:

1- خطأ المتكلمين والصوفية في فهم التوحيد.

2- يقرر نوعى التوحيد: توحيد القول وهو ما تعبر عنه سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، وتوحيد العبادة وهو ما تعبر عنه سورة ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾، وهما سورتا الإخلاص.

3- يبين أن هذا هو الإسلام العام بمعنى: التوحيد بنوعيه، وهو دين الرسل جميعا من أولهم إلى آخرهم وإن تنوعت الشرائع.

4- يتكلم عن ركنين من أركان النوع الثاني من التوحيد وهما:

أ - قبول حكم الله ورفض ما سواه.

ب- نفي النسك عن غير الله.

ويلقى ابن تيمية في "الفتاوى" وابن القيم في "المدارج"، يلقيان الضوء على الركن الثالث من أركان النوع الثاني من التوحيد ـ توحيد العبادة ـ وهو ركن الموالاة.

(1) اقتضاء الصراط المستقيم.

وخلاصة هذا كله أن توحيد العبادة الذي هو العمل في أصل الدين لا يخرج عن ثلاثة معان هي:

1 – **الحكم لله بلا شريك:** ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾[1]، والحكم هو خطاب الشارع إلى المكلفين بالاقتضاء والتخيير والوضع.

2 – **الولاية لله بلا شريك:** ﴿ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا ﴾[2] و ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ ﴾[3] و ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[4] و ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[5]، والولاية هي أن تتولى الله سبحانه وتوالي فيه سبحانه وتعالى.

3 – **النسك لله بلا شريك:** ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[6]، ﴿ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾[7]. والنسك حق خالص لله لا يقبل الشركة. بخلاف الحكم فإن طاعة الرسول طاعة لله والحلال ما أحله الرسول والحرام ما حرمه وبخلاف الولاية فإن ولاية المؤمنين في الله ولاية لله سبحانه وتعالى.

---

(1) سورة يوسف، الآية: 40.
(2) سورة الأنعام، الآية: 14.
(3) سورة الشورى، الآية: 9.
(4) سورة المائدة، الآية: 55.
(5) سورة الأعراف، الآية: 196.
(6) سورة الأنعام، الآية: 162.
(7) سورة فصلت، الآية: 37.

ووجه ارتباط هذه الأركان بتوحيد العبادة كما استفاض من كلام ابن تيمية الذي نقلناه عنه في رسائله وكتبه هو كما يلي:

إفراد الله بالحكم:

1 – لأنه تفسير الإسلام ؛ لأن الإسلام هو الاستسلام ولا يتحقق ذلك إلا بقبول الأحكام فمن استسلم لله ولغيره فهو مشرك ومن رد أمر الله عليه فهو مستكبر وكلاهما كافر، والإسلام العام هو توحيد العبادة وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره من الأولين والآخرين **والنص على ذلك من وجهين:**

ـ من جهة النص على أن الإسلام هو دين الرسل جميعًا.

ـ ومن جهة أن الإسلام هو معنى توحيد العبادة التي هي دين الرسل جميعًا.

2 – إنه داخل في معنى العبادة من حيث إن العبادة حب وخوف ورجاء وتعظيم وطاعة والشاهد هنا هو الطاعة.

3 – من جهة أنه إفراد الله بما لا يكون إلا لله ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ (1).

4 – تواتر النصوص على كفر المخالف.

5 – لم يتأخر توجيه الخطاب به بل هو أساس ما دعوا إليه من التوحيد.

إفراد الله بالنسك:

1 – من جهة أن النسك أخص من غيرها بمعنى العبادة ؛ لأنها حق خالص لله والتوحيد إفراد الله بما لا يكون إلا الله. وهذا هو أصل تقرير إفراد الله بالنسك كركن من التوحيد ـ راجع ما نقلناه مرارًا عن ابن تيمية عن حقوق الله وحق الرسول وحقوق المؤمنين (عن الحب والإيتاء والطاعة والتوكل وما بين ذلك من الفروق) (2).

2 – تواتر النصوص على كفر المخالف.

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 114.

(2) سيأتي الكلام عن ذلك تفصيلاً فى الفصل الأول من الباب الثالث.

3- للدخول في معنى العبادة.

4- لم يتأخر توجيه الخطاب به، بل هو من أول ما دعوا إليه من التوحيد (ترك عبادة الأصنام).

إفراد الله بالولاية :

1- إنه معنى العبادة بل عبر القرآن عن الثلاثة الأركان بالولاية، والتوحيد إفرادا لله بها لا يكون إلا لله، فعبر عن:

أ - **الطاعة:** ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾ (1)، ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ ﴾ (2).

ب- **النسك** : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (3).

جـ - **النصرة:** ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (4).

وغير ذلك كثير ؛ لأن معنى العبادة أن نحبه ونحب فيه ونبغض فيه ونواليه ونوالي فيه ونعادى فيه ونحرم ما حرم ونحل ما أحل.. إلخ. فمعنى العبادة كله راجع إلى الولاية.

2- تواتر النصوص بكفر المخالف.

3- لم يتأخر توجيه الخطاب به بل هو من أول ما دعوا إليه من التوحيد.

وقد ترد شبهة من أن توحيد الألوهية هو معان كلية عامة لا تنضبط بنص ظاهر لورود الكلام عن الحسب والتوكل والحب والخوف والرجاء وما إلى ذلك. والحقيقة: أن بعض هذه المعاني من النسك فهي داخلة فيما سبق ذكره.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 257.
(2) سورة الأعراف، الآية: 3.
(3) سورة الزمر، الآية: 3.
(4) سورة الأنعام، الآية: 14.

ثانيـاً: معاني الحب والخوف والرجاء أمـور قلبيـة يقـع فيهـا التفـاوت، والخلل فيها يؤدى إلى شرك أصغر أو أعظـم بحسـبه ولكـن النصـوص تحـدد أركان التوحيد بأمور ظاهرة منضبطة على النحو الذي سبق ذكره والذي يكون به المسلم مسلما بدلالة الظاهر على الباطن كما هو مقرر من التلازم بيـنهما عنـد أهل السنة والجماعة.

الباب الثالث

أركـان التوحيد العملـي

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفهرس

الفصل الأول
نفي النسك عن غير الله ﷻ
(وهو الركن الأول لتوحيد العبادة)

يقول شيخ الإسلام عن هذا الركن في الرسالة "التدمرية":

نفي النسك عن غير الله ﷻ:

« الأصل الأول: توحيد الألوهية فإنه سبحانه أخبر عن المشركين كما تقدم بأنهم أثبتوا وسائط بينهم وبين الله يدعونهم ويتخذونهم شفعاء بدون إذن الله. قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (1)، فأخبر أن هؤلاء الذين اتخذوا هؤلاء شفعاء مشركون وقال في مؤمن يس: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾(2)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (3)، فأخبر سبحانه عن شفعائهم أنهم زعموا أنهم فيهم شركاء. وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (4)، وقال تعالى: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ ﴾ (5)، وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ (6)، وقال تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ ﴾ (7)، وقال

---

(1) سورة يونس، الآية: 18.
(2) سورة يس، الآيات: 22-25.
(3) سورة الأنعام، الآية: 94.
(4) سورة الزمر، الآيتان: 43-44.
(5) سورة السجدة، الآية: 4.
(6) سورة الأنعام، الآية: 51.
(7) سورة البقرة، الآية: 255.

تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ (1)، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ ﴾ (2)، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ (3).

قالت طائفة من السلف: « كان قوم يدعون العزير والمسيح والملائكة فأنزل الله هذه الآية بَيَّن فيها أن الملائكة والأنبياء يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه ».

ومن تحقيق التوحيد أن يعلم أن الله تعالى أثبت له حقًا لا يشاركه فيه مخلوق كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوى. كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴾(4)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾(5)، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾(6)، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (7). وكل من الرسل يقول لقومه: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ ﴾ (8)، وقد قال تعالى في التوكل: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (9)، وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ (10)، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (11)، وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ

(1) سورة الأنبياء، الآيات: 26-28.
(2) سورة سبأ، الآيتان: 22-23.
(3) سورة الإسراء، الآيتان: 56-57.
(4) سورة الإسراء، الآية: 57.
(5) سورة الزمر، الآيتان: 2- 3.
(6) سورة الزمر، الآية: 11.
(7) سورة الزمر، الآيات: 64- 66.
(8) سورة هود، الآية: 50.
(9) سورة المائدة، الآية: 23.
(10) سورة إبراهيم، الآية: 11.
(11) سورة الزمر، الآية: 38.

رَٰغِبُونَ ﴾ (1)، فقال في الإيتاء: ﴿ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ، وقال في التوكل: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ (2)، ولم يقل ورسوله ؛ لأن الإيتاء هو الإعطاء الشرعي وذلك يتضمن الإباحة والإحلال الذي بلغه الرسول، فإن الحلال ما أحله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ (3).

وأما الحسب فهو الكافي والله وحده كاف عبده كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (4)، **فهو وحده حسبهم كلهم** وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (5) أي: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين هو الله فهو كافيكم كلكم وليس المراد أن الله والمؤمنون حسبك كما يظنه بعض الغالطين إذ هو وحده كاف نبيه وهو حسبه ليس معه مَن يكون هو وإياه حسبًا للرسول، وهذا في اللغة كقول الشاعر:

فحسبك والضحاك سيف مهند

وتقول العرب: حسبك وزيد درهم أي يكفيك وزيدًا جميعًا درهم. **وقال في الخوف والخشية والتقوى:** ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (6)، **فأثبت الطاعة لله والرسول وأثبت الخشية والتقوى لله وحده** كما قال نوح عليه السلام: ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ (7)، فجعل العبادة والتقوى لله وحده وجعل الطاعة له وللرسول فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله وقد قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ (8)، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (9)، وقال الخليل عليه السلام ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (10)، ثم قال

---

(1) سورة التوبة، الآية: 59.
(2) سورة آل عمران، الآية: 173.
(3) سورة الحشر، الآية: 7.
(4) سورة آل عمران، الآية: 173.
(5) سورة الأنفال، الآية: 64.
(6) سورة النور، الآية: 52.
(7) سورة نوح، الآيتان: 2-3.
(8) سورة المائدة، الآية: 44.
(9) سورة آل عمران، الآية: 175.
(10) سورة الأنعام، الآية: 81.

تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ (1).

وفي الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا:وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبي ﷺ: « **إنما هو الشرك. ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح**: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾ » (2). وقال تعالى: ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾(3) و ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ (4)، ومن هذا الباب أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته: « **من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئا** »، وقال: « **لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم ما شاء محمد** »، ففي الطاعة قرن اسم الرسول باسمه بحرف الواو وفي المشيئة أمر أن يجعل ذلك بحرف ثم ؛ وذلك لأن طاعة الرسول طاعة لله فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وطاعة الله طاعة للرسول، بخلاف المشيئة فليست مشيئة أحد من العباد مشيئة الله ولا مشيئة الله مستلزمة لمشيئة العباد بل ما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لم يكن إن لم يشأ الله » . أ هـ.

يقول ابن تيمية (5): « **فأما العكوف والمجاورة عند شجرة أو حجر تمثال أو غير تمثال، أو العكوف والمجاورة عند قبر نبي أو غير نبي أو مقام نبي أو غير نبي فليس هذا من دين المسلمين بل هو من جنس دين المشركين الذين أخبر الله عنهم بما ذكره في كتابه حيث** قال:﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴾ (6)، وقال: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ (7)، وقال

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 82.

(2) سورة لقمان، الآية: 13.

(3) سورة النحل، الآية: 51.

(4) سورة البقرة، الآية: 41.

(5) اقتضاء الصراط المستقيم ص 441 – 443.

(6) سورة الأنبياء، الآيات: 51-58.

(7) سورة الشعراء، الآيات: 69- 71.

تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(1)، فهذا عكوف المشركين وذاك عكوف المسلمين.

فعكوف المؤمنين في المساجد لعبادة الله وحده لا شريك له، وعكوف المشركين على ما يرجونه ويخافونه من دون الله ومن يتخذونهم شركاء لله وشفعاء عند الله، فإن المشركين لم يكن أحد منهم يقول: إن العالم له خالقان ولا إن الله معه إله يساويه في صفاته، هذا لم يقله أحد من المشركين بل كانوا يقرون بأن خالق السموات والأرض واحد، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (2)، وقوله: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (3).

وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك. فقال تعالى:﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ (4)، وكانوا يتخذون آلهتهم من وسائط تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (5)، وقال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (6)، وقال تعالى:﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (7)، وقال تعالى عن صاحب يس:﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ

---

(1) سورة الأعراف، الآيتان: 138-139.
(2) سورة لقمان، الآية: 25.
(3) سورة المؤمنون، الآيات: 84-89.
(4) سورة الروم، الآية: 28.
(5) سورة الزمر، الآية: 3.
(6) سورة الزمر، الآيتان: 43-44.
(7) سورة يونس، الآية: 18.

تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ (1)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ (2)، وقال: ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ ﴾ (3)، وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ (4) » (5).

يقول ابن تيمية في" موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول" بعد أن يذكر ما أدخله المتكلمون من نفي الصفات في التوحيد(6): « والتوحيد الذي جاء به الرسول لم يتضمن شيئا من هذا النفي وإنما تضمن **إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا هو وأن لا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ولا يوالى إلا له ولا يعادى إلا فيه ولا يعمل إلا لأجله** وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، وفي الحديث الصحيح عن جابر في سياق حجة الوداع « فأهلّ رسول الله ﷺ بالتوحيد ». أ هـ.

وبعد أن يقرر بالنصوص أن التوحيد هو توحيد العبادة، يقرر خطأ المتكلمين في عدم إثبات هذا التوحيد الذي جاءت به النصوص وإنما أثبتوا غيره مما ابتدعوه.

فيقول(7) : « وكثير من أهل الكلام يقول: التوحيد له ثلاث معان. واحد في ذاته لا قسيم له أو لا جزء له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له ».

إلى أن يقول: « وليس الحق الذي في هذا التوحيد هو الغاية التي جاء بها الرسول بل التوحيد الذي جاء به الرسول يتضمن الحق الذي في هذا الكلام وزيادة أخرى.

إلى أن يقول: وذلك أن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزهه عن كل ما ينزه عنه وأقر بأنه وحده خالق كل شيء **لم يكن موحدًا بل ولا مؤمنًا حتى يشهد أن لا إله إلا الله فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة ويلتزم بعبادة الله**

---

(1) سورة يس، الآيات: 22-25.
(2) سورة الأنعام، الآية: 94.
(3) سورة السجدة، الآية: 4.
(4) سورة الأنعام، الآية: 51.
(5) اقتضاء الصراط المستقيم ص 441 – 443.
(6) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول, طبعة السنة المحمدية جـ1 ص 124.
(7) المصدر السابق .

وحده لا شريك له ».

ويبين أن الإله هو بمعنى المعبود وليس بمعنى القادر على الاختراع ويبين أن من المشركين من أقر بجميع ما في هذا التوحيد الذي أثبته المتكلمون من الحق وكانوا مع هذا مشركين ؛ لأنهم كانوا يعبدون مع الله غيره.

إلى أن يقول، وهذا هو الشاهد (1): « ولهذا كان من أتباع هؤلاء ـ يعني المتكلمين ـ من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها كما يدعو الله تعالى ويصوم لها وينسك لها ويتقرب إليها ثم يقول: إن هذا ليس بشرك وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي فإذا جعلتها سببا وواسطة لم أكن مشركًا **ومن المعلوم من دين الإسلام بالاضطرار أن هذا شرك** ـ فهذا ونحوه من التوحيد الذي بعث الله به رسوله وهم لا يدخلونه في مسمى التوحيد الذي اصطلحوا عليه وأدخلوا في ذلك نفي الصفات ». أ هـ.

ويقول ابن تيمية(2): « **بعض المخلوقات وإن كان أفضل من بعض فكلها مشتركة في أنه لا يجعل شيء منها ندًا لله تعالى فلا يعبد، ولا يتوكل عليه ولا يخشى ولا يتقى ولا يصام له ولا يسجد له ولا يرغب إليه ولا يقسم بمخلوق** كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « **من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت** »، وقال: « **لا تحلفوا إلا بالله** »، وفي السنن عنه أنه قال ﷺ: « **من حلف بغير الله فقد أشرك** ».

فقد ثبت بالنصوص الصحيحة عن النبي ﷺ أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات لا فرق في ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ولا فرق بين نبي ونبي وهذا كما قد سوى الله بين جميع المخلوقات في ذم الشرك بها وإن كانت معظمة فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (3)، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ

(1) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، جـ1 ص 124 وما بعدها بتصرف.
(2) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص 118-131.
(3) سورة آل عمران، الآيتان: 79-80.

﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾[1]». أ هـ.

إلى أن يقول[2]: « فقد تبين أن الله سوى بين المخلوقات في هذه الأحكام ولم يجعل لأحد من المخلوقات سواء كان نبيًا أو ملكًا أن يقسم به ولا يتوكل عليه ولا يرغب إليه ولا يخشى ولا يتقى وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾[3].

فقد تهدد سبحانه من طلب شيئًا من دون الله وبَيَّن أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركاء في ملكه وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقات فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستعانة، **ولم يبق إلا الشفاعة وهى حق لكن قال تعالى:** ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾[4]، وهكذا دلت الأحاديث الصحيحة في الشفاعة يوم القيامة إذا أتى الناس آدم وأولي العزم نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم فيردهم كل واحد إلى الذي بعده إلى أن يأتوا المسيح فيقول: اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال ﷺ: « **فيأتوني فأذهب إلى ربى فإذا رأيته خررت ساجدًا وأحمد ربى بمحامد يفتحها على لا أحسنها الآن فيقال لي: أي محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأقول ربى أمتي فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة** ».

إلى أن يقول: وهذا كله يبين أن الأمر كله لله؛ وهو الذي يلزم الشفيع بالإذن له في الشفاعة والشفيع لا يشفع إلا فيمن أذن له.

إلى أن يقول: فالأمر بمشيئة الله وقدرته واختياره وأوجه الشفعاء وأفضلهم هو عبده الذي فضله على غيره واختاره واصطفاه بكمال عبوديته بطاعته وإنابته وموافقته لربه فيما يحبه ويرضاه.

وإذا كان الإقسام بغير الله والرغبة إليه وخشيته وتقواه ونحو ذلك، هي من الأحكام التي اشتركت المخلوقات فيها **فليس لمخلوق أن يقسم به ولا يتقى ولا يتوكل عليه وإن كان أفضل المخلوقات، ولا يستحق ذلك أحد من الملائكة والنبيين فضلًا عن غيرهم من المشايخ والصالحين.**

---

(1) سورة الإسراء، الآيتان: 56–57.
(2) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص 120–121.
(3) سورة سبأ، الآيتان: 22– 23.
(4) سورة سبأ، الآية: 23.

إلى أن يقول: فإذا لم يكن الصحابة كعمر بن الخطاب وغيره في حياته ﷺ وبعد موته يتوسلون بذاته بل إنما كانوا يتوسلون بطاعته أو شفاعته فكيف يقال في دعاء المخلوقين الغائبين والموتى وسؤالهم من الملائكة والنبيين وغيرهم وقد قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾(1). قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالمسيح وعزير وغيرهما فنهى الله عن ذلك وأخبر تعالى أن هؤلاء يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون إليه فهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله عنهم وقد قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾(2).

ولهذا نهى النبي ﷺ أن يتخذ قبره وثنًا يعبد وأن يتخذ عيدًا. وقال في مرض موته ﷺ: « **لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** »، يحذر ما صنعوا أخرجاه في الصحيحين وقال ﷺ: « **اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** »، رواه مالك في الموطأ. وقال ﷺ: « **لا تطروني كما أطرت النصارى على عيسى ابن مريم وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله** »، متفق عليه، وقال: « **لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد بل ما شاء الله وحده** »، وقد قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ ﴾(3)، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾(4)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ﴾(5).

وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾(6)، وهذا تحقيق التوحيد مع أنه ﷺ أكرم الخلق على الله وأعلاهم منزلة عند الله، وقد روى الطبراني في معجمه الكبير أن منافقًا كان

---

(1) سورة الإسراء، الآيتان: 56-57.
(2) سورة آل عمران، الآيتان: 79-80.
(3) سورة الأعراف، الآية: 188.
(4) سورة يونس، الآية: 49.
(5) سورة القصص، الآية: 56.
(6) سورة آل عمران، الآية: 128.

يؤذى المؤمنين فقال أبو بكر قوموا نستغيث برسول الله من هذا المنافق فقال له النبي ﷺ: « **إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله** »، وفي صحيح مسلم أنه قال قبيل موته بخمس: « **أن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك** »، وفي صحيح مسلم وغيره أنه ﷺ قال: « **لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها** »، وفي الصحيحين من حديث أبى سعيد وأبى هريرة وله طرق متعددة عند غيرهما أنه ﷺ قال: « **لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى** ».

وسئل مالك عن رجل نذر أن يأتي قبر النبي ﷺ فقال مالك: إن كان أراد القبر فلا يأته وإن أراد المسجد فليأته ثم ذكر الحديث: « **لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد** »، ذكره القاضي إسماعيل في مبسوطه.

ولو حلف بحق المخلوقين لم تنعقد يمينه ولا فرق في ذلك بين الأنبياء والملائكة وغيرهم ولله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم، وللأنبياء حق وللمؤمنين بعضهم على بعض حق. فحق الله تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا كما تقدم في حديث معاذ ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ويتوكلوا عليه ويرغبوا إليه ولا يجعلوا لله ندًا لا في محبته ولا في خشيته ولا دعائه، ولا الاستعانة به كما في الصحيحين أنه قال ﷺ: « **من مات وهو يدعو نًدا من دون الله دخل النار** »، وسئل أي الذنب أعظم؟ قال ﷺ: « **أن تجعل لله ندًا وهو خلقك** »، وقيل له: ما شاء الله وشئت فقال: « **أجعلتني لله ندًا بل ما شاء الله وحده** »، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ (1)، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (2)، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ (3)، ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (4)، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴾ (5)، وقال تعالى في فاتحة الكتاب التي هي أم القرآن: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ (6)، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا

(1) سورة النساء، الآية: 48.
(2) سورة البقرة، الآية: 22.
(3) سورة النحل، الآية: 51.
(4) سورة العنكبوت، الآية: 56.
(5) سورة الشرح، الآيتان: 7-8.
(6) سورة الفاتحة، الآية: 5.

لِلَّهِ﴾(1)، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾(2)، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾(3).

ولهذا لما كان المشركون يخوفون إبراهيم الخليل ﷺ قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(4)، وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال لهم النبي ﷺ: « **إنما ذاك الشرك كما قال العبد الصالح:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (5)»، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾(6)، **فجعل الطاعة لله والرسول** فإنه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(7)، **وجعل الخشية والتقوى لله وحده فلا يخشى إلا الله ولا يتقى إلا الله.**

إلى أن يقول: وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾(8)، **فجعل سبحانه وتعالى الإيتاء لله والرسول في أول الكلام وآخره كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾**(9)، **مع جعله الفضل لله وحده وهو وحده حسبهم لا شريك له في ذلك**، وروى البخاري عن ابن عباس في قوله: « حسبنا الله ونعم الوكيل »، قال: قالها إبراهيم حين ألقى في النار وقالها محمد حين قال لهم الناس: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ

(1) سورة البقرة، الآية: 165.
(2) سورة المائدة، الآية: 44.
(3) سورة الأحزاب، الآية: 39.
(4) سورة الأنعام، الآيات: 80-82.
(5) سورة لقمان، الآية: 13.
(6) سورة النور، الآية: 52.
(7) سورة النساء، الآية: 80.
(8) سورة التوبة، الآية: 59.
(9) سورة الحشر، الآية: 7.

لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (1).

إلى أن يقول: **وذلك أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله في أمره ونهيه ووعده ووعيده** فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله فعلينا أن نحب الله ورسوله ونطيع الله ورسوله ونرضي الله ورسوله قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (2)، وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾(3)، وقال: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (4)، وقال: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ (5).

إلى أن يقول: وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (6)، **فالإيمان بالله والرسول والتعزير والتوقير للرسول وتعزيره نصره ومنعه. والتسبيح بكرة وأصيلًا لله وحده فإن ذلك من العبادة**(7) **والعبادة لله وحده** فلا يصلى إلا لله ولا يصام إلا لله ولا يحج إلا إلى بيت الله ولا تشد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة لكون هذه المساجد بناها أنبياء الله بإذن الله ولا ينذر إلا لله ولا يحلف إلا بالله ولا يدعى إلا الله ولا يستغاث إلا بالله وأما ما خلقه الله سبحانه من الحيوان والنبات والمطر والسحاب وسائر المخلوقات **فلم يجعل غيره من العباد واسطة في ذلك الخلق كما جعل الرسل واسطة في التبليغ** بل يخلق ما يشاء بما يشاء من الأسباب وليس في المخلوقات شيء يستقل بإبداع شيء، بل لابد للسبب من أسباب أخرى تعاونه ولابد من دفع المعارض عنه وذلك لا يقدر عليه إلا الله وحده فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن بخلاف الرسالة، فإن الرسول وحده كان واسطة في تبليغ رسالته إلى عباده وأما جعل الهدى في قلوب العباد فهو إلى الله تعالى لا إلى الرسول كما قال الله

(1) سورة آل عمران، الآية: 173.
(2) سورة التوبة، الآية: 62.
(3) سورة التغابن، الآية: 12.
(4) سورة النساء، الآية: 80.
(5) سورة التوبة، الآية: 24.
(6) سورة الفتح، الآيتان: 8- 9.
(7) هذا هو معنى النسك، وإلا فطاعة الرسول طاعة لله وطاعة الله عبادة له وهى أيضا له وحده.

تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[1]، وقال: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾[2].

وكذلك دعاء الأنبياء واستغفارهم وشفاعتهم هو سبب ينفع إذا جعل الله تعالى المحل قابلًا له وإلا فلو استغفر النبي للكفار والمنافقين لم يغفر لهم قال تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾[3]. وأما الرسل فقد تبين أنهم هم الوسائط بيننا وبين الله ﷻ في أمره ونهيه ووعده ووعيده وخبره فعلينا أن نصدقهم في كل ما أخبروا به ونطيعهم فيما أوجبوا وأمروا وعلينا أن نصدق بجميع أنبياء الله ﷻ ولا نفرق بين أحد منهم.

ومن سب واحدًا منهم كان كافرًا مرتدًا مباح الدم وإذا تكلمنا فيما يستحقه الله تبارك وتعالى من التوحيد بيّنا **أن الأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحقه الله تبارك وتعالى من خصائص** فلا يشرك بهم ولا يتوكل عليهم ولا يستغاث بهم كما يستغاث بالله ولا يقسم على الله بهم ولا يتوسل بذواتهم وإنما يتوسل بالإيمان بهم وبمحبتهم وطاعتهم وموالاتهم وتعزيرهم ومعاداة من عادوه وعاداهم وطاعتهم فيما أمروا به وتصديقهم فيما أخبروا وتحليل ما أحلوا وتحريم ما حرموا ». أ هـ.

---

(1) سورة القصص، الآية: 56.
(2) سورة النحل، الآية: 37.
(3) سورة المنافقون، الآية: 6.

الشفاعة: أنواعها وأحكامها:
(الغلاة والجفاة والمتوسطون في الشفاعة)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(1):

« **وهذا الموضع افترق فيه الناس ثلاث فرق طرفان ووسط:**

1- **فالمشركون ومن وافقهم** من مبتدعة أهل الكتاب، كالنصارى ومبتدعة هذه الأمة أثبتوا الشفاعة التي نفاها القرآن.

2- **والخوارج والمعتزلة** أنكروا شفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر من أمته، بل أنكر طائفة من أهل البدع انتفاع الإنسان بشفاعة غيره ودعائه كما أنكروا انتفاعه بصدقة غيره وصيامه عنه وأنكروا الشفاعة بقوله تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾(2)، وبقوله: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾(3) وغير ذلك.

3- **وأما سلف الأمة وأئمتها** ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة فأثبتوا ما جاءت به السنة عن النبي ﷺ من شفاعته لأهل الكبائر من أمته وغير ذلك من أنواع شفاعته وشفاعة غيره من الأنبياء والملائكة وقالوا: إنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد وأقروا بما جاءت به السنة من انتفاع الإنسان بدعاء غيره وشفاعته والصدقة عنه، بل والصوم عنه في أصح قولي العلماء كما ثبتت به السنة الصحيحة الصريحة وما كان في معنى الصوم.

وقالوا: إن الشفيع يطلب من الله ويسأله ولا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه قال تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾(4)، وقال: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾(5)، وقال: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾(6)، وقد ثبت في الصحيح أن سيد الشفعاء ﷺ إذا طلبت منه الشفاعة بعد أن تطلب من آدم وأولي العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى فيردونها إلى محمد ﷺ العبد

(1) اقتضاء الصراط المستقيم ص 443 – 452.
(2) سورة البقرة، الآية: 254.
(3) سورة غافر، الآية: 18.
(4) سورة البقرة، الآية: 255.
(5) سورة الأنبياء، الآية: 28.
(6) سورة النجم، الآية: 26.

الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: « **فأذهب إلى ربي فإذا رأيته خررت ساجدًا. فأحمد الله بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن فيقول: أي محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأقول: رب أمتي رب أمتي فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة** ».

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (1)، قال طائفة من السلف: كان أقوام يدعون العزير والمسيح والملائكة فأنزل الله هذه الآية وقد أخبر فيها أن هؤلاء المسئولين كانوا يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه، وقد ثبت في الصحيح أن أبا هريرة قال: يا رسول الله، أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة؟ قال ﷺ: « **يا أبا هريرة لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدًا أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله يبتغى بها وجه الله** »، فكلما كان الرجل أتم إخلاصًا لله كان أحق بالشفاعة، وأما من علق قلبه بأحد من المخلوقين يرجوه ويخافه فهذا من أبعد الناس عن الشفاعة، فشفاعة المخلوق عند المخلوق تكون بإعانة الشافع للمشفوع له بغير إذن المشفوع عنده بل يشفع إما لحاجة المشفوع عنده إليه، وإما لخوفه منه فيحتاج أن يقبل شفاعته عنده، والله تعالى غني عن العالمين وهو وحده سبحانه يدبر العالمين كلهم، فما من شفيع إلا من بعد إذنه فهو الذي يأذن للشفيع في الشفاعة وهو يقبل شفاعته كما يلهم الداعي الدعاء، ثم يجيب دعاءه.

فالأمر كله له فإذا كان العبد يرجو شفيعًا من المخلوقين فقد لا يختار ذلك الشفيع أن يشفع له وإن اختار فقد لا يأذن الله له في الشفاعة، ولا يقبل شفاعته، وأفضل الخلق محمد ﷺ ثم إبراهيم وقد امتنع النبي ﷺ أن يستغفر لعمه أبى طالب بعد أن قال ﷺ: « **لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك** »، وقد صلى على المنافقين ودعا لهم، فقيل له: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ (2)، وقال الله له أولًا: ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ﴾ (3)، فقال: « **لو أعلم أنى لو زدت على السبعين يغفر لهم لزدت** »، فأنزل الله: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ﴾ (4).

(1) سورة الإسراء، الآيتان: 56-57.
(2) سورة التوبة، الآية: 84.
(3) سورة التوبة، الآية: 80.
(4) سورة المنافقون، الآية: 6.

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (1)، ولما استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه بعد وعده بقوله: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ (2)، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ (3)، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ (4). **والله سبحانه له حقوق لا يشركه فيها غيره، وللرسل حقوق لا يشركهم فيها غيرهم وللمؤمنين على المؤمنين حقوق مشتركة.**

ففي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال لي: « **يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟** » قلت: الله ورسوله أعلم قال: « **حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، يا معاذ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟** » قلت: الله ورسوله أعلم قال: « **حقهم عليه أن لا يعذبهم** » **فالله تعالى مستحق أن يعبد لا يشرك به شيء وهذا هو أصل التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل الكتب** قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (5)، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (6)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (7)، ويدخل في ذلك: أن لا نخاف إلا إياه ولا نتقي إلا إياه كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (8)، **فجعل الطاعة لله وللرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده.** كذلك قال

(1) سورة هود، الآيات: 74- 76.
(2) سورة إبراهيم، الآية: 41.
(3) سورة الممتحنة، الآية: 4.
(4) سورة التوبة، الآيتان: 113- 114.
(5) سورة الزخرف، الآية: 45.
(6) سورة الأنبياء، الآية: 25.
(7) سورة النحل، الآية: 36.
(8) سورة النور، الآية: 52.

تعـــالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ (1)، **فجعل الإيتاء لله وللرسول** كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ (2)، فالحلال ما حلله الرسول والحرام ما حرمه الرسول والدين ما شرعه الرسول **وجعل التحسب بالله وحده** فقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ (3)، ولم يقل ورسوله. كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾(4)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (5) أي: حسبك وحسب من اتبعك الله فهو وحده كافيكم ومن ظن أن معناها حسبك الله والمؤمنون فقط غلط غلطًا عظيما لوجوه كثيرة مذكورة في غير هذا الموضع. ثم قال تعالى: ﴿ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ (6)، فجعل الفضل لله، وذكر الرسول في الإيتاء ؛ لأنه لا يباح إلا ما أباحه الرسول فليس لأحد أن يأخذ كل ما تيسر له إن لم يكن مباحًا في الشريعة، ثم قال: ﴿ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ (7)، فجعل الرغبة إلى الله وحده دون سواه ».

إلى أن يقول: **فالله هو الذي يتوكل عليه ويستعان به ويستغاث به ويخاف ويرجى ويعبد وتنيب إليه القلوب، ولا حول ولا قوة إلا به لا منجى منه إلا إليه والقرآن كله يحقق هذا الأصل.**

والرسول ﷺ يطاع ويحب ويرضى به ويسلم إليه حكمه ويعزر ويوقر ويتبع ويؤمن بما جاء به قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (8)، وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (9)، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (10)، وقال: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

(1) سورة التوبة، الآية: 59.
(2) سورة الحشر، الآية: 7.
(3) سورة آل عمران، الآية: 173.
(4) سورة آل عمران، الآية: 173.
(5) سورة الأنفال، الآية: 64.
(6) سورة التوبة، الآية: 59.
(7) سورة التوبة، الآية: 59.
(8) سورة النساء، الآية: 80.
(9) سورة النساء، الآية: 64.
(10) سورة التوبة، الآية: 64.

وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ ﴾ [1].

إلى أن يقول: وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٨﴾ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾ [2] أي: تعزروا الرسول وتوقروه وتسبحوا الله تعالى بكرة وأصيلًا. **فالإيمان بالله والرسول. والتعزير والتوقير للرسول والتسبيح لله وحده. وهذا الأصل مبسوط في غير هذا الموضع. وقد بعث الله محمدًا ﷺ بتحقيق التوحيد وتجريده، ونفي الشرك بكل وجه حتى في الألفاظ كقوله ﷺ: « لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء محمد بل ما شاء الله ثم شاء محمد »**، وقال له رجل: ما شاء الله وشئت فقال: « **أجعلتني لله ندًا. قل ما شاء الله وحده** ».

والعبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدين كله لله تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾[3]، فالصلاة لله وحده والصدقة لله وحده والحج لله وحده إلى بيت الله وحده فالمقصود من الحج عبادة الله وحده في البقاع التي أمر الله بعبادته فيها ؛ ولهذا كان الحج شعار الحنيفية حتى قال طائفة من السلف: « حنفاء لله » أي: حجاجًا فإن اليهود والنصارى لا يحجون البيت.

قال طائفة من السلف لما أنزل الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾[4]، قالت اليهود والنصارى: نحن مسلمون فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ﴾ [5]، فقالوا: لا نحج، فقال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [6]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا ﴾[7]. عام في الأولين والآخرين بأن دين الإسلام هو دين الله الذي جاء به أنبياؤه وعليه عباده المؤمنون كما ذكر الله ذلك في كتابه في أول رسول بعثه إلى أهل الأرض: نوح وإبراهيم وإسرائيل وموسى

(1) سورة التوبة، الآية: 24.
(2) سورة الفتح، الآيتان: 8-9.
(3) سورة البينة، الآية: 5.
(4) سورة آل عمران، الآية: 85.
(5) سورة آل عمران، الآية: 97.
(6) سورة آل عمران، الآية: 97.
(7) سورة آل عمران، الآية: 85.

وسليمان وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين. قال في حق نوح: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (1)، وفي حق إبراهيم وإسرائيل: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(2)، وعن يوسف: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(3)، وعن موسى وقومه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾(4)، وعن بلقيس: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (5)، وعن أمة عيسى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾(6)، ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(7)، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾(8)، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ

(1) سورة يونس، الآيتان: 71- 72 .
(2) سورة البقرة، الآيات: 130- 133.
(3) سورة يوسف، الآية: 101.
(4) سورة يونس، الآية: 84.
(5) سورة النمل، الآية: 44.
(6) سورة المائدة، الآية: 111.
(7) سورة آل عمران، الآية: 35.
(8) سورة النساء، الآية: 125.

عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (1).

وقد فسر إسلام الوجه لله بما يتضمن إخلاص قصد العبد لله بالعبادة له وحده وهو محسن بالعمل الصالح المشروع المأمور به.

وهذا الأصلان جماع الدين: أن لا نعبد إلا الله وأن نعبده بما شرع لا نعبده بالبدع.

إلى أن يقول: وهذان الأصلان هما تحقيق الشهادتين اللتين هما رأس الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدًا رسول الله. فإن الشهادة لله بأنه لا إله إلا هو تتضمن إخلاص الألوهية له فلا يجوز له أن يتأله القلب غيره لا بحب، ولا بخوف، ولا رجاء، ولا إجلال، ولا إكبار، ولا رغبة، ولا رهبة بل لابد أن يكون الدين كله لله كما قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ (2)، فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغيره كان في ذلك من الشرك بحسب ذلك ». أ هـ.

---

(1) سورة البقرة، الآيتان: 111- 112.

(2) سورة الأنفال، الآية: 39.

التوسل أنواعه وأحكامه

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته "قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة"(1):
عن التوسل بالإيمان بالأنبياء، والتوسل بذلك على وجهين:

أحدهما: أن يتوسل بذلك إلى إجابة الدعاء وإعطاء السؤال لحديث الثلاثة الذين آووا إلى الغار فإنهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب دعاءهم ويفرج كربتهم.

والثاني: التوسل بذلك إلى حصول ثواب الله وجنته ورضوانه فإن الأعمال الصالحة التي أمر بها الرسول ﷺ هي الوسيلة التامة إلى حصول سعادة الدنيا والآخرة مثل هذا كقول المؤمنين: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾(2)، فإنهم قدموا ذكر الإيمان قبل الدعاء.

وكذلك التوسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته فإنه يكون على وجهين:

أحدهما: أن يطلب منه الدعاء والشفاعة فيدعو ويشفع كما كان يطلب منه في حياته وكما يطلب منه في يوم القيامة. **إلى أن يقول:**

الوجه الثاني: أن يكون التوسل مع ذلك بأن يسأل الله تعالى بشفاعته ودعائه كما مر في حديث الأعمى فإنه طلب منه الدعاء والشفاعة فدعا له الرسول وشفع فيه وأمره أن يدعو الله فيقول: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك به اللهم فشفعه في. فأمره أن يسأل الله تعالى قبول شفاعته بخلاف من يتوسل بدعاء الرسول وشفاعة الرسول، والرسول لم يدع له ولم يشفع فيه فهذا توسل بما لم يوجد إنما يتوسل بدعائه وشفاعته من دعا له وشفع فيه.

ومن هذا الباب قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا

---

(1) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص 131- 133.
(2) سورة آل عمران، الآية: 193.

نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا »، فعمر والمسلمون توسلوا بدعاء العباس وسألوا الله مع دعاء العباس فإنهم استشفعوا جميعًا ولم يكن العباس وحده هو الذي دعا لهم فصار التوسل بطاعته والتوسل بشفاعته كل منها يكون مع دعائه[1] المتوسل وسؤاله ولا يكون بدون ذلك.

فهذه أربعة أنواع كلها مشروعة لا ينازع في واحد منها أحد من أهل الإيمان والعلم.

ودين الإسلام مبني على أصلين وهما:

- **تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله** وأول ذلك أن لا تجعل مع الله إلهًا آخر فلا تحب مخلوقًا كما تحب الله ولا ترجوه كما ترجو الله ولا تخشاه كما تخشى الله ومن سوى بين المخلوق والخالق في كل شيء من ذلك فقد عدل بالله وهو من الذين هم بربهم يعدلون وقد جعل مع الله إلهًا آخر وإن كان مع ذلك يعتقد بأن الله وحده خلق السموات والأرض فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ ﴾ [2]، وكانوا مع ذلك مشركين يجعلون مع الله آلهة أخرى قال تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ ﴾ [3]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [4]، فصاروا مشركين ؛ لأنهم أحبوهم كحبه لا لأنهم قالوا إن آلهتهم خلقوا كخلقه.

إلى أن يقول: كما قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[5]، وقال: [﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(1) يقول ابن تيمية في موضع آخر من الرسالة: «وقد علم أنهم في حياته إنما توسلوا بدعائه وشفاعته، وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره وشفاعة غيره».

(2) سورة لقمان، الآية: 25.

(3) سورة الأنعام، الآية: 19.

(4) سورة البقرة، الآية: 165.

(5) سورة يونس، الآية: 18.

تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[1]][2].

وقال صاحب يس: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾[3].

• **والأصل الثاني: أن نعبده بما شرع على ألسنة رسله** لا نعبده إلا بواجب أو مستحب والمباح إذا قصد به الطاعة دخل في ذلك. والدعاء من جملة العبادات فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم كان مبتدعا في الدين مشركا برب العالمين[4].

إلى أن يقول [5]:

والتوسل المذموم مراتب:

• **أحدها: أن يدعو غير الله ﷻ وهو ميت أو غائب سواء كان من الأنبياء والصالحين أو غيرهم فيقول:** يا سيدي فلان أغثني أو أنا أستجير بك وأستغيث بك، أو أنصرني على عدوي ونحو ذلك، فهذا هو الشرك بالله وأعظم من ذلك أن يسجد لقبره ويصلي إليه ويرى الصلاة إليه أفضل من استقبال القبلة حتى يقول بعضهم: هذه قبلة الخواص والكعبة قبلة العوام، وأعظم من ذلك أن يقول: اغفر لي وتب عليّ كما يفعله طائفة من الجهال المشركين، وأعظم منه من يرى السفر إليه من جنس الحج حتى يقول: إن السفر إليه مرات يعدل حجة، وغلاتهم يقولون: إن الزيارة إليه مرة أفضل من حج البيت مرات متعددة ونحو ذلك فهذا شرك بهم وإن كان يقع كثير من الناس في بعضه.

• **والثاني: أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين: ادع الله لي أو ادع لنا ربك أو اسأل الله لنا،** فهذا أيضا لا يستريب عالم أنه غير جائز وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الأمة وإن كان السلام على أهل القبور جائزًا ومخاطبتهم جائزة كما كان النبي ﷺ يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول قائلهم: « **السلام عليكم أهل الديار من**

---

(1) سورة الزمر، الآيات: 1-3.
(2) ما بين المعقوفين القوسين (لا يوجد في الأصل).
(3) سورة يس، الآيات: 22-25.
(4) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص 133.
(5) المصدر السابق ص 160.

المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يغفر الله لنا ولكم نسأل الله لنا ولكم العافية، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم »، وروى أبو عمر بن عبد البر عن النبي ﷺ: « **ما من رجل يمر بقبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام** »، وفي مسنن أبى داود عن النبي ﷺ أنه قال: « **ما من مسلم يسلم عليّ إلا رد الله على روحي حتى أرد عليه السلام** ». لكن ليس من المشروع أن يطلب من الأموات لا دعاء ولا غيره.

إلى أن يقول[1]: « ومذهب الأئمة الأربعة مالك وأبى حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة الإسلام أن الرجل إذا سلم على النبي ﷺ وأراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة واختلفوا في وقت السلام عليه فقال الثلاثة: يستقبل الحجرة ويسلم عليه من تلقاء وجهه، وقال أبو حنيفة: لا يستقبل الحجرة وقت السلام ثم في مذهبه قولان قيل: يستدبر القبلة وقيل: يجعلها عن يساره ».

إلى أن يقول[2]: « فعلم أنه لا يجوز أن يسأل الميت شيئا ولا يطلب منه أن يدعو الله له ولا غير ذلك ولا يجوز أن يشكي إليه بشيء من مصاب الدنيا والدين ولو جاز أن يشكي إليه في حياته فإن ذلك في حياته لا يفضي إلى الشرك ».

إلى أن يقول[3]: « وهذا يفضى إلى الشرك. إلى أن يقول: وقد كره مالك وغيره أن يقول الرجل: زرت قبر الرسول ﷺ ؛ لأن هذا اللفظ لم يرد، والأحاديث المروية في زيارة قبره كلها ضعيفة بل كذب، وهذا اللفظ صار مشتركا في عرف المتأخرين يراد به:

أ - الزيارة البدعية التي في معنى الشرك كالذي يزور القبر ليسأله أو يسأل الله به أو يسأل الله عنده.

ب - والزيارة الشرعية وهى أن يزوره لله تعالى للدعاء له والسلام عليه كما يصلي على جنازته، فهذا الثاني هو المشروع لكن كثيرًا من الناس لا يقصد بالزيارة إلا المعنى الأول فكره مالك أن يقول: زرت قبره لما فيه من إيهام المعنى الفاسد الذي يقصده أهل البدع والشرك.

---

(1) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص 161.
(2) المصدر السابق ص 162.
(3) المصدر السابق ص 163.

- **الثالث: أن يقال أسألك بفلان أو بجاه فلان (أو بحق فلان) أو نحو ذلك** الذي تقدم عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما أنه منهي عنه وتقدم أيضا أن هذا ليس بمشهور عن الصحابة، بل عدلوا عنه إلى التوسل بدعاء العباس وغيره » . أ هـ.

وخلاصة القول:

أولا: أن لهذه المسألة ثلاثة أوجه كلها شرك وكفر والعياذ بالله:

1- أن يتقرب إلى المخلوق بأنواع العبادات والقربات ليقربه إلى الله زلفى وأن يتقرب إلى الله بعبادة المخلوق بأوجه التعظيم والتنسك له التي ترفعه عن مقام العبودية، وسواء كان في تقربه إلى المخلوق بأنواع النسك من أجل أن يشفع له عند الله أو أن يدعو له أو من أجل أن له منزلة عند الله لا ترد له بها شفاعة ويسوغ له بها التدخل في أقدار الناس بما يتراءى له من النفع والضر.

2- أن يتخذ عند الله شفعاء يشفعون عنده بغير إذنه لمن لا يرتضيه ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًاۖ ﴾ (1).

3- دعاء الموتى والتوجه إليهم مباشرة بالاستغاثة والاستعانة (مدد يا سيدي فلان، نظرة يا ست) مع تسييب السوائب ونذر النذور إلى غير ذلك.

ثانياً: وجهان من البدع والذرائع المفضية إلى الشرك:

1- سؤال الميت أو الغائب أن يدعو الله له أو يشفع له عند الله أو شكواه له مصائب الدنيا والدين من غير أن يتقرب إليه بشيء من النسك.

وبعض العلماء يفرق بين سؤال الميت فيجعله شركا أعظم وسؤال الغائب فيجعله ذريعة مفضية إلى الشرك.

2- الإقسام على الله بالمخلوق ولا يقسم على الله إلا به سبحانه وتعالى ولكن الله سبحانه له أن يقسم بما شاء وبمن شاء من عباده.

(1) سورة الزمر، الآية: 44.

الفصل الثاني
قبول شرع الله ورفض ما سواه
(وهو الركن الثاني لتوحيد العبادة)

يقول شيخ الإسلام في "اقتضاء الصراط المستقيم"(1):

« والشهادة بأن محمدًا رسول الله تتضمن:

1- تصديقه في كل ما أخبر.

2- طاعته في كل ما أمر(2):

فما أثبته وجب إثباته وما نفاه وجب نفيه، كما يجب على الخلق أن يثبتوا لله ما أثبته الرسول لربه من الأسماء والصفات، وينفوا عنه ما نفاه عنه، من مماثلة المخلوقات فيخلصون من التعطيل والتمثيل ويكونون على خير عقيدة في إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل **وعليهم أن يفعلوا ما أمرهم به وأن ينتهوا عما نهاهم عنه ويحللوا ما أحله ويحرموا ما حرمه، فلا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله** ؛ ولهذا ذم الله المشركين في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما لكونهم حرموا ما لم يحرمه الله ولكونهم شرعوا ديناً لم يأذن به الله كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾(3) إلى آخر السورة، وما ذكر الله في صدر سورة الأعراف، وكذلك قوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾(4)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾(5)، فأرسله داعيًا إلى الله بإذنه فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك، ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع والشرك بدعة والمبتدع يؤول إلى الشرك ولم يوجد مبتدع إلا وفيه نوع من الشرك.

كما قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ

(1) اقتضاء الصراط المستقيم ص 452 – 456.
(2) أي قبول حكمه والإذعان له جملة وعلى الغيب، وأما الدخول في الأعمال فلاحق على الشهادة وراجع إلى الفروع التي لا تقبل ولا تصح إلا من المسلم الذي صدق الخبر وقبل الحكم فقبول الحكم يأتي قبل الدخول في الأعمال.
(3) سورة الأنعام، الآية: 136.
(4) سورة الشورى، الآية: 21.
(5) سورة الأحزاب، الآيتان: 45-46.

مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1]، وكان من شركهم أنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم وقد قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[2]، **فقرن بعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر أنهم لا يحرمون ما حرمه الله ورسوله ولا يدينون دين الحق.**

والمؤمنون صدَّقوا الرسول فيما أخبر به عن الله وعن اليوم الآخر فآمنوا بالله واليوم الآخر وأطاعوه فيما أمر ونهى وحلل وحرم، فحرموا ما حرمه الله ورسوله ودانوا دين الحق، فإن الله بعث الرسول يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، فأمرهم بكل معروف ونهاهم عن كل منكر وأحل لهم كل طيب وحرم عليهم كل خبيث.

ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾[3]، فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لما سواه وهذه حقيقة قولنا ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[4]، وثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان** »[5]، فقيل له يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذاك ؟ قال: « **لا إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس** »، بطر الحق: جحده ودفعه، وغمط الناس: ازدراؤهم واحتقارهم، فاليهود موصوفون بالكبر، والنصارى موصوفون بالشرك قال تعالى في نعت

---

(1) سورة التوبة، الآية: 31.
(2) سورة التوبة، الآية: 29.
(3) سورة محمد، الآية: 19.
(4) سورة غافر، الآية: 60.
(5) زيادة عن التصديق.

اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ (1)، وقال في نعت النصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (2)، ولهذا قال تعالى في سياق الكلام عن النصارى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (3)، وقال تعالى في سياق تقريره للإسلام وخطابه لأهل الكتاب: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (4).

ولما كان أصل الدين الذي هو دين الإسلام واحد وإن تنوعت شرائعه قال النبي ﷺ: «**إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد والأنبياء أخوة لعلات، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا فليس بيني وبينه نبي**»، فدينهم واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وهو يعبد في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت. وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت. وتنوع الشرائع في الناسخ والمنسوخ من المشروع كتنوع الشريعة الواحدة. فكما أن دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ هو دين واحد مع أنه قد كان في وقت يجب استقبال بيت المقدس في الصلاة كما أمر النبي ﷺ بذلك بعد الهجرة بضعة عشر شهرًا، وبعد ذلك يجب استقبال الكعبة ويحرم استقبال الصخرة. فالدين واحد وإن تنوعت القبلة في وقتين من أوقاته ؛ ولهذا شرع الله تعالى لبني إسرائيل السبت ثم نسخ ذلك وشرع لنا الجمعة فكان الاجتماع يوم السبت واجبًا إذ ذاك ثم صار الواجب هو الاجتماع يوم الجمعة وحرم الاجتماع يوم السبت فمن خرج عن شريعة موسى قبل النسخ لم يكن مسلماً ومن لم يدخل في شريعة محمد ﷺ بعد النسخ لم يكن مسلماً.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 87.
(2) سورة التوبة، الآية: 31.
(3) سورة آل عمران، الآية: 64.
(4) سورة البقرة، الآيات: 136-140.

ولم يشرع الله لنبي من الأنبياء أن يعبد غير الله البتة قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ (1)، فأمر الرسل أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ (2) .

وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (3)، ثم قال: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (4)، فأهل الإشراك متفرقون وأهل الإخلاص متفقون ». أ هـ.

ولننتقل إلى "رسالة العبودية"، يقول فيها ابن تيمية(5):

« فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ومحييهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم لا رب غيره ولا مالك لهم سواه ولا خالق إلا هو سواء اعترفوا بذلك أو أنكروا، سواء علموا بذلك أو جهلوا ولكن أهل الإيمان منهم علموا بذلك واعترفوا به بخلاف من كان جاهلاً بذلك أو جاحدًا له مستكبرًا على ربه ولا يخضع له مع علمه بأن الله ربه وخالقه ».

فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجحد له كان عذابًا على صاحبه كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (6)، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (7)، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ

---

(1) سورة الشورى، الآية: 13.
(2) سورة المؤمنون، الآيتان: 51- 52.
(3) سورة الروم، الآية: 30.
(4) سورة الروم، الآيتان: 31-32.
(5) رسالة العبودية ص 7- 8..
(6) سورة النمل، الآية: 14.
(7) سورة البقرة، الآية: 146.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ (1)، فإذا عرف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه ومحتاج إليه عرف عبوديته المتعلقة بربوبية الله وهذا العبد يسأل ربه ويتضرع إليه ويتوكل عليه لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه وقد يعبده مع ذلك وقد يعبد الشيطان والأصنام، ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار ولا يصير بها الرجل مؤمنًا كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ (2)، فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ (3) ، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ (4)، وكثير ممن يتكلم في الحقيقة ويشهدها، يشهد هذه الحقيقة وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر. وإبليس معترف بهذه الحقيقة وأهل النار. قال تعالى عن إبليس إنه قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ (5)، وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ (6)، **فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقم بما أمر به من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بإلهيته وطاعة أمره وأمر رسله كان من جنس إبليس وأهل النار ؛ ولهذا كان عنوان التوحيد لا إله إلا الله بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبده أو يعبد معه إلهًا آخر.**

فالإله تألهه القلوب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك، وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها وبها وصف المصطفين من عباده وبها بعث رسله.

وأما العبد بمعنى المعبد سواء أقر بذلك أم أنكره فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر. وبالفرق بين هذين النوعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة في عبادة الله ودينه

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 33.
(2) سورة يوسف، الآية: 106.
(3) سورة لقمان، الآية: 25.
(4) سورة المؤمنون، الآيات: 84- 89.
(5) سورة ص، الآية: 79.
(6) سورة الحجر، الآية: 39.

وأمره الشرعي التي يحبها ويرضاها ويوالي أهلها ويكرمهم بحبه، وبين الحقائق الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر التي من اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس اللعين والكافرين برب العالمين ». أ هـ.

ويقول ابن تيمية في رسالة "قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة"[(1)]:

« وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع، قد بين فيه التوحيد الذي بعث الله به رسوله قولًا وعملًا، فالتوحيد القولي مثل سورة الإخلاص: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، والتوحيد العملي: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وقد كان أيضا يقرأ في ركعتي الفجر وركعتي الطواف: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [(2)]، وفي الركعة الثانية بقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ [(3)].

فإن هاتين الآيتين فيهما دين الإسلام وفيهما الإيمان القولي والعملي فقوله تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ إلى آخرها. يتضمن الإيمان القولي والإسلام وقوله: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ يتضمن الإسلام والإيمان العملي (يعنى أن الإسلام هو الإيمان العملي) فأعظم نعمة أنعمها الله على عباده الإسلام والإيمان وهما في هاتين الآيتين والله سبحانه أعلم ». أهـ.

يقول ابن تيمية "في قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة" [(4)]:

« ودين الإسلام مبنى على أصلين: أن يعبد الله وحده لا شريك له، وأن نعبده بما شرعه من الدين وهو ما أمرت به الرسل أمر إيجاب أو استحباب، فيعبد في كل زمان بما أمر به في ذلك الزمان، فلما كانت شريعة التوراة محكمة كان العاملون بها مسلمين، وكذلك شريعة الإنجيل وكذلك في أول الإسلام لما كان النبي ﷺ يصلي إلى بيت المقدس كانت صلاته إليه من الإسلام، ولما أمر بالتوجه إلى الكعبة كانت الصلاة إليها من الإسلام والعدول عنها إلى الصخرة خروجًا عن دين الإسلام. فكل مَن لم يعبد الله بعد بعث محمد ﷺ بما شرعه الله من واجب ومستحب فليس بمسلم ». أ هـ.

---

(1) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص 170- 171.
(2) سورة البقرة، الآية: 136.
(3) سورة آل عمران، الآية: 64.
(4) المصدر السابق ص 50.

ويقول ابن تيمية في "رسالة الفرقان"[1]:

« كما أن (لفظ الشريعة) يتكلم به كثير من الناس ولا يفرق بين الشرع المنزل من عند الله تعالى وهو الكتاب والسنة الذي بعث الله به رسوله فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق الخروج عنه ولا يخرج عنه إلا كافر ».

ثم يقول[2]: « فلفظ الشرع والشريعة إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن لأحد من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه، ومن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقًا إلى الله غير متابعة محمد ﷺ باطنًا وظاهرًا فلم يتابعه باطنًا وظاهرًا فهو كافر ».

ويقول في نفس الرسالة[3]: « فإن أصل الأصول: تحقيق الإيمان بما جاء به الرسول فلابد من الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به الرسول ﷺ **فلابد من الإيمان بأن محمدًا رسول الله ﷺ إلى جميع الخلق إنسهم وجنهم عربهم وعجمهم علمائهم وعبادهم، ملوكهم وسوقتهم وأنه لا طريق إلى الله ﷻ لأحد من الخلق إلا بمتابعته ظاهرًا وباطنًا حتى لو أدركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم إتباعه** كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[4].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

وقد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ

---

(1) الفرقان: تصحيح وتعليق محمود عبد الوهاب فايد . نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد (السعودية) ص 143.

(2) المصدر السابق ص 145.

(3) المصدر السابق ص 90-91.

(4) سورة آل عمران، الآيتان: 81- 82.

إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [1] ». أ هـ.

ويقول ابن تيمية في الرسالة التدمرية[2]:

الأصل الثاني:حق الرسول ﷺ أن نؤمن به ونطيعه ونرضيه ونحبه ونسلم لحكمه وأمثال ذلك قوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [3]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [4]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [5]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [6]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [7]، وأمثال ذلك ». أ هـ.

---

(1) سورة النساء، الآيات: 60-65.
(2) الرسالة التدمرية .
(3) سورة النساء، الآية: 80.
(4) سورة التوبة، الآية: 62.
(5) سورة التوبة، الآية: 24.
(6) سورة النساء، الآية: 65.
(7) سورة آل عمران، الآية: 31.

نفي الحكم عن غير الله ﷻ

القضية التي نريد أن نثبتها هنا هي قضية:

قبول شرع الله ورفض ما سواه كركن من أركان التوحيد المتعلق بالعمل، أما علاقة هذه القضية بالتوحيد القولى: فهي إثبات صفة من صفات الله تعالى له، واعتقاد وجوبها له وتفرده بها فمن أسماء الله وصفاته: الحكم. والحكم: هو الحاكم بالعدل كما يقول القرطبي: والحاكم معناه الاصطلاحي هو المشرع.

ولا تختلف هذه القضية من جهة علاقتها بالتوحيد القولى عن إثبات أية صفة أو اسم آخر له سبحانه كالرازق والقابض والباسط من اعتقاد الوجوب والتفرد فهي داخلة من هذا الاعتبار في توحيد الصفات. أما من حيث علاقتها بالتوحيد العملي: فهي ركن من أركان هذا التوحيد.

ولنبدأ في بيانها:

- **أولاً: من ناحية القبول:**

1- يقول القسطلانى في شرح "البخاري"[(1)] عن الإيمان بعد أن يبين أن الإيمان الذي يتكلم عنه هو أول ما يذكر من المقاصد الدينية ؛ لأنه ملاك الأمر كله ؛ ولأن الباقي منها مبني عليه مشروط به وهو أول واجب على المكلف.

ثم يقول عنه: وهو لغة التصديق، وهو كما قال التفتازاني: **إذعان لحكم المخبر وقبوله** فليس حقيقة التصديق أن يقع في القلب نسبة التصديق إلى الخبر أو المخبر من غير إذعان أو قبول لذلك بحيث يقع عليه اسم التسليم كما صرح به الإمام الغزالي.

والإسلام لغة: الانقياد والخضوع **ولا يتحقق ذلك إلا بقبول الأحكام والإذعان** وذلك حقيقة التصديق كما سبق. قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[(2)]، فالإيمان لا ينفك عن الإسلام حكمًا فهما متحدان في التصديق وإن تغايرا بحسب المفهوم، إذ مفهوم الإيمان تصديق القلب ومفهوم الإسلام أعمال الجوارح ».

---

(1) شرح القسطلانى على صحيح البخاري.

(2) سورة الذاريات، الآيتان: 35-36.

2- **يقول النسفي** في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (1): « **إن كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر**، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق ».

3- **ويقول البيضاوي** في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (2): « كأنه احتج بذلك على **أن الذي لم يرض بحكمه وإن أظهر الإسلام كان كافرًا مستوجب القتل** وتقريره أن إرسال الرسول لما لم يكن إلا ليطاع كان من لم يطعه ولم يرض بحكمه لم يقبل رسالته ومن كان كذلك كان كافرًا مستوجب القتل ».

4- **ويقول البيضاوي** أيضًا في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (3): « لا يحب الكافرين: لا يرضى عنهم ولا يثني عليهم وإنما لم يقل لا يحبهم لقصد العموم وللدلالة على أن التولي كفر وأنه من هذه الحيثية ينفي محبة الله وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين ».

5- **ويذكر عبد القادر عودة في (التشريع الجنائي جـ 1 مشيرًا إلى مراجعه في ذلك وهي أحكام القرآن للجصاص جـ 2 ص 214، وأعلام الموقعين لابن القيم جـ 1 ص 57، 58)** في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (4)، **يقول:**

« **ويستدل الفقهاء بهذه الآية على أن من رد شيئًا من أوامر الله أو أوامر رسوله فهو خارج عن الإسلام سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول أو الامتناع عن التسليم**. ولقد حكم الصحابة بارتداد مانعي الزكاة ؛ لأن الله حكم بأن من لم يسلم بما جاء به الرسول ولم يسلم لقضائه وحكمه فهو من أهل النار ».

6ـ **ويقول البخاري:** « وكان الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها.. فإذا وضح الكتاب والسنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبي ﷺ، ورأى أبو بكر قتال مانعي الزكاة فقال عمر: كيف تقاتل وقد قال

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 36.
(2) سورة النساء، الآية: 64.
(3) سورة آل عمران، الآية: 32.
(4) سورة النساء، الآية: 65.

رسول الله ﷺ: « **وأمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها** »، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين ما جمع رسول الله ﷺ ثم تابعه عمر، فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورة إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ في الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة وأرادوا تبديل الدين وأحكامه قال النبي ﷺ: « **من بدل دينه فاقتلوه** ».

7- **يقول الطبري** في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ ﴾ (1)، مفسرًا لها بالقرآن بسورة الماعون: « حدثنا بشر قال: حدثنا زيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة: ﴿ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾، أنزل الله هذه الآية وقد علم أن سيرتد مرتدون من الناس فلما قبض الله نبيه ﷺ ارتد عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد ـ أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين من عبد القيس ـ قالوا(2): نصلي ولا نزكى والله لا تغصب أموالنا فكلم أبو بكر في ذلك فقيل له: إنهم لو قد فقهوا لهذا أعطوها أو أدوها فقال: لا والله لا أفرق بين شيء جمع الله بينه ولو منعوا عقالًا مما فرضه الله لقاتلناهم عليه. فبعث الله عصابة مع أبى بكر تقاتل على ما قاتل عليه نبي الله ﷺ حتى سبى وحرق بالنيران أناسًا ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة فقاتلهم حتى أقروا بالماعون ـ وهى الزكاة صغرة أقمياء، فأتته وفود العرب فخيرهم بين خطة مخزية أو حرب مجلية فاختاروا الخطة المخزية وكانت أهون عليهم: أن يقروا أن قتلاهم في النار وأن قتلى المؤمنين في الجنة وأن ما أصابوا من المسلمين من مال ردوه عليهم وما أصاب المسلمون لهم من مال فهو لهم حلال ».

8- **يقول القسطلانى** في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ (3): « **أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى**: ﴿ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ **جواب الشرط. ووجه الدلالة على ترادفهما: أن الإيمان هو الدين والدين هو الإسلام** لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾(4)، فينتج أن الإيمان هو الإسلام ».

(1) سورة المائدة، الآية: 54.
(2) أي قال عامة العرب الذين ارتدوا عن الإسلام: نصلى ولا نزكى وكانت هذه ردتهم.
(3) سورة آل عمران، الآية: 85.
(4) سورة آل عمران، الآية: 19.

9- **ويقول النسفي في قوله تعالى**: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [1]:

« أي المستسلمين لأوامره ونواهيه:﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ ﴾ [2] انقادوا لحكم الله تعالى في التوراة وفي قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ﴾ [3] أذعن وأطع وأخلص دينك لله ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [4] أخلصت أو انقدت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [5]، وهو الاستسلام والطاعة أي: **استسلموا لله وأطيعوه** ﴿ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [6]: الظلم بها وضعها في غير موضعها أي جحودها وترك الإنقياد لها ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [7] أي: الطاعة مبتغين بها وجهه خالصًا: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ [8]، صدقوا بآياتنا ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين له ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [9] من المنقادين ».

وغير ذلك كثير للنسفي يحفل بها تفسيره.

10- **ويقول ابن كثير في قوله تعالى**: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ [10]:

« أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم وانقادت لشرع الله جوارحهم ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [11] أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ».

هذا بعض ما جاء في قبول شرع الله وحكم من رده ولم يقبله.

- **ثانياً: بعض ما جاء في رفض شرع ما سواه، وحكم من قبله ولم يرفضه:**

1- **يقول ابن كثير**:

أ- في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [12]:

« حاكمة على من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد** ».

(1) سورة الزمر، الآية: 12.
(2) سورة المائدة، الآية: 44.
(3) سورة البقرة، الآية: 131.
(4) سورة البقرة، الآية:131.
(5) سورة البقرة، الآية: 208.
(6) سورة الأعراف، الآية: 9.
(7) سورة غافر، الآية: 14.
(8) سورة الزخرف، الآية: 69.
(9) سورة الزمر، الآية: 12.
(10) سورة الزخرف، الآية: 69.
(11) سورة النساء، الآية: 136.
(12) سورة آل عمران، الآية: 31.

ويقــول عــن الآيــة الثانيــة: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (1) أي: لا تخالفوه عن أمره ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فدل على **أن مخالفته في الطريقة كفر** والله لا يحب من اتصف بذلك وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ».

ب- ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ﴾(2):

« هذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (3)، فما حكم به الكتاب والسنة وشهد له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال: ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ﴾ (4)، فدل على أن **من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنًا بالله ولا باليوم الآخر** ».

جـ - ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (5):

« ينكر تعالى على من خرج على حكم الله المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأهوائهم وآرائهم وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيزخان الذي وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه **فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير** ».

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 32.
(2) سورة النساء، الآية: 59.
(3) سورة الشورى، الآية: 10.
(4) سورة النور، الآية: 2.
(5) سورة المائدة، الآية: 50.

2- **ويقول البيضاوي** في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ (1) :

« ﴿ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ لا تختلف فيها الرسل والكتب، ويفسرها ما بعدها ﴿ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ولا نقول عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله **ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوه من التحريم والتحليل**؛ لأن كل منهم ﴿ بَعۡضُنَا ﴾ بشر مثلنا. روى أنه لما نزلت: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (2)، قال عدى بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله قال: « **أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟** » قال: نعم، قال: « **هو ذاك** » ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ عن التوحيد ﴿ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ أي: لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل ».

وقريب من هذا ما ذكره القسطلانى في شرح حديث رسول الله ﷺ الذي تضمنته رسالته لهرقل وذلك في شرح صحيح البخاري.

3- **ويقول النسفي** في تفسير نفس الآيات:

« ﴿ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ ﴾ أي: مستوية ﴿ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل وتفسير الكلمة قوله: ﴿ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يعني: تعالوا حتى لا نقول عزير بن الله ولا المسيح بن الله لأن كل واحد منهما ﴿ بَعۡضُنَا ﴾ بشر مثلنا **ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحليل والتحريم من غير رجوع إلى شرع الله. « وعن عدى بن حاتم ما كنا نعبدهم يا رسول الله قال: « أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم » قال: نعم قال: « هو ذاك »** ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ﴾ **عن التوحيد** ﴿ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ **أي: لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم** ».

4- **ويقول القرطبي** في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ ﴾ إلى قوله ﴿ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾:

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 64.
(2) سورة التوبة، الآية: 31.

« ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا ﴾ **أي: لا نتبعه في تحليل شيء أو تحريمه إلا فيما حلله الله تعالى** وهو نظير قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، وهذا يدل على بطلان القول بالاستحسان المجرد الذي لا يستند إلى دليل شرعي.

وفيه رد على الروافض الذين يقولون: ويجب قبول قول الإمام دون إبانة مستند شرعي وإنه يحل ما حرمه الله دون أن يبين مستندًا من الشريعة: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أعرضوا عن ما دعوا إليه ﴿ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي: متصفون بدين الإسلام **منقادون لأحكامه** معترفون بما لله علينا من المنن والإنعام، **ولا نقبل من الرهبان شيئا بتحريمهم علينا ما لم يحرمه الله علينا فنكون قد اتخذناهم أربابا.**

5- **ويقول النسفي** في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ آلهة ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله كما يطاع الأرباب في أوامرهم ونواهيهم ».

6- **ويقول القرطبي** في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (1):

« ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال مجاهد وغيره: المراد بهذه الآية من تقدم ذكره ممن أراد التحاكم إلى الطاغوت وفيهم أنزلت. وقال الطبري: قوله: « فَلَا » رد على ما تقدم ذكره، تقديره: فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، ثم استأنف القسم بقوله: ﴿ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال غيره إنما قدم ﴿ لَا ﴾ على القسم اهتمامًا بالنفي وإظهار لقوته ثم كرر النفي بعد القسم تأكيدًا للتهم بالنفي، وكان يصح إسقاط ﴿ لَا ﴾ الثانية ويبقى أكثر الاهتمام لتقديم الأولى وكان يصح إسقاط الأولى ويبقى معنى النفي ويذهب معنى الاهتمام ﴿ شَجَرَ ﴾ معناه اختلف واختلط ﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ أي: ينقادوا لأمرك في القضاء وكل من اتهم رسول الله في الحكم فهو كافر ».

7- **ويقول سيد قطب** بعد أن يسوق ما جاء في تفسير ابن كثير عن عدى ابن حاتم من أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو يقرأ الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فقال: « قلت: إنهم لم يعبدوهم فقال:بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم ».

---

(1) سورة النساء، الآية: 65.

وما قاله السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا ﴾(1) أي: الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ.

وما قاله الآلوسي في التفسير: « الأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم ».

يقول: « ومن النص القرآني الواضح الدلالة ومن تفسير رسول الله ﷺ وهو فصل الخطاب ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين تخلص لنا حقائق في العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية الاختصار.

إن العبادة هي الإتباع في الشرائع بنص القرآن وتفسير الرسول ﷺ، فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابًا بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم. ومع هذا حكم الله سبحانه عليهم بالشرك في هذه الآية ـ وبالكفر في آية تالية في السياق ـ لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوهم واتبعوها فهذه وحده دون الاعتقاد والشعائر يكفي لاعتبار من يقبله مشركًا بالله الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين ».

8- **جاء في حديث البخاري في صفة يوم القيامة** ـ من حديث طويل:

« **فيقول من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت... إلخ** ».

وجاء في البخاري في تفسير معنى الطاغوت:

« قال جابر: كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها في جهينة واحد وفي أسلم واحد وفي كل حي واحد: كهان ينزل عليهم الشيطان، وقال عمر: والجبت السحر، والطاغوت الشيطان، وقال عكرمة: الجبت بلسان الحبشة شيطان، والطاغوت الكاهن » والمعنى واحد.. يقول ربنا عز وجل: ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾(2).

9- **يقول النسفي**: « ﴿ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ الشيطان يعنى طاعته ».

وفي تفسير قوله عز وجل عن الشيطان: ﴿ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ ﴾(3):

« معنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان ».

(1) سورة التوبة، الآية: 31.
(2) سورة النحل، الآية: 36.
(3) سورة إبراهيم، الآية: 22.

10- **ويقول ابن كثير** في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴾ (1): « أي: هو الذي أمرهم بذلك وحسنه لهم وزينه لهم، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ ﴾ (2) ».

11- **ويقول النسفي** في تفسير هذه الآية الآخيرة: « عبادة الشيطان: طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم ﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي ﴾(3) وحدوني وأطيعوني ».

12- **ويقول ابن كثير وكذلك القرطبي** في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا ﴾ (4): « قال ابن عباس والسدى: الأنداد: الرؤساء المتبعون، يطيعونهم في معاصي الله ».

ومثل هذا كثير لمن تتبعه في التفاسير في بيان **أن العبادة معناها: الطاعة**، فالتحاكم إلى الكهان عبادة لهم، وهم بذلك معبودون يتبعهم عابدوهم يوم القيامة كما يتبع عباد الشمس الشمس وعباد القمر القمر.

- **ثالثًا: ما جاء في وجوب الاثنين معًا (القبول والرفض):**

يقول ابن تيمية في كتاب "اقتضاء الصراط المستقيم"(5):

« والشهادة بأن محمدًا رسول الله تتضمن تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، فما أثبته وجب إثباته، وما نفاه وجب نفيه. كما يجب على الخلق أن يثبتوا لله ما أثبته الرسول ﷺ لربه من الأسماء والصفات، وينفوا عنه ما نفاه عنه من مماثلة المخلوقات، فيخلصون من التعطيل والتمثيل، ويكونون على خير عقيدة، في إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل. وعليهم أن يفعلوا ما أمرهم به وأن ينتهوا عما نهاهم عنه ويحللوا ما أحله ويحرموا ما حرمه، فلا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله.

ولهذا ذم الله المشركين في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما لكونهم حرموا ما لم يحرمه الله ولكونهم شرعوا دينًا لم يأذن به الله كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ

---

(1) سورة النساء، الآية: 117.
(2) سورة يس، الآية: 60.
(3) سورة يس، الآية: 61.
(4) سورة البقرة، الآية: 165.
(5) اقتضاء الصراط المستقيم ص 452- 456.

﴿ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾[1] إلى آخر السورة، وما ذكر الله في صدر سورة الأعراف وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[2]، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[3]، فأخبره أنه أرسله داعيًا إليه بإذنه فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك، ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع والشرك بدعة والمبتدع يؤول إلى الشرك.

ولم يوجد مبتدع إلا وفيه نوع من الشرك كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[4].

وكان من شركهم أنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم. وقد قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[5]، فقرن بعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر: أنهم لا يحرمون ما حرمه الله ورسوله ولا يدينون دين الحق: والمؤمنون صدقوا الرسول فيما أخبر عن الله وعن اليوم الآخر فآمنوا بالله واليوم الآخر وأطاعوه فيما أمر ونهى وحلل وحرم فحرموا ما حرم الله ورسوله ودانوا دين الحق، فإن الله بعث الرسول يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، فأمرهم بكل معروف ونهاهم عن كل منكر وأحل لهم كل طيب وحرم عليهم كل خبيث.

ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ﴾[6]، **فلابد في الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة قولنا** ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 136.

(2) سورة الشورى، الآية: 21.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان: 45- 46.

(4) سورة التوبة، الآية: 31.

(5) سورة التوبة، الآية: 29.

(6) سورة الزمر، الآية: 29.

فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾(1).

وثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: « **لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان** » فقيل: يا رسول الله، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا أفمن الكبر ذاك ؟ قال: « **لا إن الله جميل يحب الجمال: الكبر بطر الحق وغمط الناس** » بطر الحق: جحده ودفعه: وغمط الناس: ازدراؤهم واحتقارهم.

فاليهود موصوفون بالكبر، والنصارى موصوفون بالشرك، قال الله تعالى في نعت اليهود: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾(2)، وقال تعالى في نعت النصارى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(3)؛ ولهذا قال تعالى في سياق الكلام مع النصارى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(4)، وقال تعالى في سياق تقريره للإسلام وخطابه لأهل الكتاب: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(5).

---

(1) سورة غافر، الآية: 60.

(2) سورة البقرة، الآية: 87.

(3) سورة التوبة، الآية: 31.

(4) سورة آل عمران، الآية: 64.

(5) سورة البقرة، الآيات: 136- 139.

ولما كان أصل الدين الذي هو دين الإسلام واحدًا وإن تنوعت شرائعه قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: « **إنا معشر الأنبياء ديننا واحدًا والأنبياء أخوة لعلات. وإن أولى الناس بابن مريم لأنا فليس بيني وبينه نبي** ». فدينهم واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وهو: أن يعبد في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت. وتنوع الشرائع في الناسخ والمنسوخ من المشروع كتنوع الشريعة الواحدة. فكما أن دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ هو دين واحد مع أنه قد كان في وقت يجب استقبال بيت المقدس في الصلاة كما أمر النبي ﷺ المسلمين بذلك بعد الهجرة ببضعة عشر شهرًا وبعد ذلك يجب استقبال الكعبة ويحرم استقبال الصخرة. فالدين واحد وإن تنوعت القبلة في وقتين من أوقاته ؛ ولهذا شرع الله تعالى لبنى إسرائيل السبت ثم نسخ ذلك وشرع لنا الجمعة. فكان الاجتماع يوم السبت واجبًا إذ ذاك ثم صار الواجب الاجتماع يوم الجمعة وحرم الاجتماع يوم السبت، فمن خرج عن شريعة موسى قبل النسخ لم يكن مسلمًا، ومن لم يدخل في شريعة محمد بعد النسخ لم يكن مسلمًا ». أ هـ.

ويقول في الرسالة التدمرية:

« **فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا ومن لم يستسلم له كان مستكبرًا عن عبادته والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر. والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده وهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت** ». أ هـ.

ولنا هنا ملاحظة وتنبيه:

ذكر ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هذا الركن: وهو قبول شرع الله ورفض ما سواه كركن من أركان التوحيد العملي القصدي الإرادي الطلبي بعد أن فرغ من بيان التوحيد العلمي القولي المتعلق بالخبر والاعتقاد.

فلو كانت الطاعة في التحريم والتحليل أو التشريع عمومًا مقيدة أو مفسرة بالاعتقاد وحده دون العمل ـ ومعناه نسبة الصدق إلى الخبر والمخبر دون إذعان للحكم أو قبول له ـ لذكر هذا النوع في توحيد الاعتقاد. ولكنه أبان بوضوح توحيد الاعتقاد ما هو؟ وتوحيد العمل ما هو. وعندما استهل النوع الثاني من التوحيد ذكر هذا الركن وابتدأ تفسير التوحيد العملي ـ توحيد العبادة ـ به.

وهذا واضح جدًا من سياق كلامه في "اقتضاء الصراط المستقيم"، وكل ما نقل عنه

في بيان ضلال المتكلمين والصوفية في قصرهم التوحيد على الاعتقاد دون العمل وبيان أنه بذلك لا ينجي من الشرك الأعظم ثم شرع في بيان معاني توحيد العبادة مبتدئًا: بقبول شرع الله ورفض ما سواه على نحو ما بيناه.

الفصل الثالث
إفراد الله بالولاية
(وهو الركن الثالث لتوحيد العبادة)

يقول ابن تيمية[1] عن الموالاة بعد كلام عن موالاة أهل الكتاب:

«**والمحبة والموالاة لهم تنافي الإيمان** قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾[2]، وقال تعالى فيما يذم به أهل الكتاب: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾[3].

فبين الله سبحانه وتعالى أن الإيمان بالله تعالى والنبي وما أنزل إليه يستلزم عدم ولايتهم فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان ؛ لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾[4]، **فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يوجد مؤمن يواد كافرًا فمن واد كافرًا فليس بمؤمن** ». أ هـ.

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم ص219-220.
(2) سورة المائدة، الآيات: 51-53.
(3) سورة المائدة، الآيات: 78 - 81.
(4) سورة المجادلة، الآية: 22.

ويقول الإمام ابن القيم[1]:

« الرضا بالله ربًا: أن لا يتخذ ربًا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [2] . قال ابن عباس: «سيدًا وإلهاً» يعني: فكيف أطلب ربًا غيره وهو رب كل شيء، وقال في أول السورة: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [3]، يعني: معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأ، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾[4] أي: أفغير الله أبتغى من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه وهذا كتابه سيد الحكام ؟! فكيف نتحاكم إلى غير كتابه وقد أنزله مفصلاً كافيًا شافيًا ؟!

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا ورسولًا، ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله ربًا ولا يبغى ربًا سواه ولكنه لا يرضى به وحده وليًا وناصرًا بل يوالي من دونه أولياء ظنًا منه أنهم يقربونه إلى الله وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك بل التوحيد أن لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء، وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته، **فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرق بينهما فليطلب التوحيد من أساسه فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.** وكثير من الناس ينبغي غيره حكما يتحاكم إليه ويخاصم إليه ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاثة هي أركان التوحيد: ألا يتخذ سواه ربا ولا إلها ولا غيره حكمًا.

وتفسير الرضا بالله ربًا: أن يسخط عبادة ما دونه هذا هو الرضا بالله إلهًا وهو من تمام الرضا بالله ربًا. فمن أعطى الرضا بالله ربًا حقه، سخط عبادة ما دونه قطعًا ؛ لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية. وقوله: «وهو قطب رحى الإسلام» يعنى أن مدار رحى الإسلام على أن

(1) مدارج السالكين جـ1، ص 181-182.
(2) سورة الأنعام، الآية: 164.
(3) سورة الأنعام، الآية: 14.
(4) سورة الأنعام، الآية: 114.

يرضى العبد بعبادة ربه وحده وأن يسخط عبادة غيره، وقد تقدم أن العبادة هي: الحب مع الذل فكل من ذللت له وأطعته وأحببته دون الله فأنت عابدًا له.

وقوله[1]: «**وهو يطهر من الشرك الأكبر**» **يعنى أن الشرك نوعان: أكبر وأصغر فهذا الرضا يطهر من الأكبر**، وأما الأصغر فيطهر منه نزوله منزلة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2].

وقوله: «وهو يصح بثلاثة شروط أن يكون الله عز وجل أحب الأشياء إلى العبد وأولى الأشياء بالتعظيم وأحق الأشياء بالطاعة». يقول ابن القيم تعقيبًا على ذلك بعد كلام: « فالحاصل أن يكون الله وحده هو المحبوب المعظم المطاع فمن لم يحبه ولم يطعه ولم يعظمه فهو متكبر عليه ومتى أحب معه سواه وأطاع معه سواه وعظم معه سواه فهو مشرك. ومتى أفرده وحده بالحب والتعظيم والطاعة فهو عبد موحد، والله أعلم ».

ثم يتكلم الشيخ الهروى عن الدرجة الثانية من الرضا ويعلق ابن القيم على معنى الدرجة الأولى بقوله: « **ووجه قوله إنه لا يدخل الإسلام إلا بالدرجة الأولى أي من الرضا** ». « وهو ما ذكرناه »[3]. أ هـ.

ويقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[4]:

« ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافة وهى باقية إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين. وروت فرقة أن هذه الآية نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفرة فالمخاطبة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها من بلاد العرب خوطبوا بألا يوالوا الآباء والإخوة فيكونوا لهم تبعًا في سكنى بلاد الكفر: ﴿ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ﴾ أي: أحبوا كما يقال: استجاب بمعنى أجاب: أي لا تطيعوهم ولا تخصوهم. وخص الله سبحانه وتعالى الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها فنفى الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ

---

(1) يعنى الهروى.
(2) سورة الفاتحة، الآية: 5.
(3) مدارج السالكين جـ1 ص181-182.
(4) سورة التوبة، الآية: 23.

﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ ﴾ [1]، ليبين أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [2]، **قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم لأن من رضي بالشرك فهو مشرك**[3].

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [4]:

« لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه والأب لابنه والأخ لأخيه والرجل لزوجته إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من تسارع لذلك ومنهم من أبى أن يهاجر فيقول: والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة لا أنفعكم ولا أنفق عليكم شيئًا أبدًا. ومنهم من تتعلق به امرأته وولده ويقولون له: ننشدك بالله ألا تخرج فنضيع بعدك، فمنهم من يرق ويدع الهجرة ويقيم معهم فنزلت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ﴾، فيقول: ﴿ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ﴾ إن اختاروا الإقامة على الكفر بمكة على الإيمان بالله والهجرة إلى المدينة: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ ﴾، بعد نزول الآية: ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾، ثم نزل في الذين تخلفوا ولم يهاجروا: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ ، وهى الجماعة التي ترجع إلى عقد واحد كعقد العشرة فما زاد، ومنه المعاشرة وهى الاجتماع على الشيء: ﴿ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ اكتسبتموها بمكة، وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره ﴿ وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ قال ابن مبارك: هي البنات والأخوات في البيوت إذا كسدن في البيوت لا يجدن خاطبًا ». أ هـ.

وفي تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [5] :

« قال عكرمة: نزلت هذه الآية في شباب من قريش كانوا تكلموا بالإسلام منهم على بن أمية بن خلف وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو العاص بن منبه بن الحجاج

(1) سورة المائدة، الآية: 51.
(2) سورة التوبة، الآية: 23.
(3) مر الكلام على الرضا ودلالة الظاهر من القبول على الباطن من الرضا أو الظاهر من الموالاة على الباطن من الرضا. ولا يقيد الظاهر بباطن لا يمكن الوقوف عليه إلا المرجئة. وفى علاقة الظاهر بالباطن تفاصيل ذكرت بالأصول.
(4) سورة التوبة، الآية: 24.
(5) سورة النساء، الآية: 97.

والحارث بن زمعة قال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة وخرجوا مع المشركين بيوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب فنزلت هذه الآية عامة في كل **من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنًا من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حرامًا بالإجماع** ».

ويقول النسفي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾:

« نزلت فيمن أسلم ولم يهاجر حين كانت الهجرة فريضة فخرج مع المشركين إلى بدر مرتدًا فقتل كافرا: ﴿ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ حال من خبر المفعول في ﴿ تَوَفَّىٰهُم ﴾ أي في حال **ظلمهم أنفسهم بالكفر وترك الهجرة** ». أ هـ.

ويقول ابن كثير في تفسير: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾:

« قال البخاري: حدثنا عبد الله بن زيد المقري، حدثنا حيوة وغيره قالا: حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود قال: قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته فنهاني عن ذلك أشد النهي قال: أخبرني ابن عباس **أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم** على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب عنقه فيقتل فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾، رواه الليث عن ابن الأسود ».

وقد مر خبر العباس بن عبد المطلب في تفسير آية الأنفال. ويقول الرسول ﷺ: « **من كثر سواد قوم فهو منهم ومن رضي عمل قوم كان شريك من عمل به** » رواه البخاري.

ويقول(1) **ابن كثير**: « وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا أبو أحمد يعني الزبيري، حدثنا محمد بن شريك المكي، حدثنا عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال: « كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾

---

(1) وفي "لباب النقول": أن رسول الله ﷺ بعث لمن رجع عن الهجرة بعد الشروع فيها بآية العنكبوت: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت:10]. فخرج منهم من أصبر على الهجرة وهاجر فنزلت فيهم آية النحل: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل:110].

قال: فكتب إلى من بقى من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم قال:فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم التقية فنزلت هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ ﴾ (1) ... ويقول ابن عباس كنت أنا وأمي ممن عذر الله في مكة. ويقول البخاري: « فكان ابن عباس مع أمة من المستضعفين ولم يكن مع أبيه على دين قومه ».

وفيمن ظاهر المشركين ممن تكلم بالإسلام:

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ ﴾ (2):

قال ابن عباس: **هم قوم بمكة آمنوا وتركوا الهجرة،** قال الضحاك: وقالوا: إن يظهر محمد ﷺ ـ فقد عرفنا ـ وإن ظهر قومنا فهو أحب إلينا فصار المسلون فيهم فئتين. قوم يتولونهم وقوم يتبرؤون منهم قال الله ﷻ: ﴿ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ ﴾ ».

ويقول ابن كثير: « قال العوفي عن ابن عباس:نزلت في قوم كانوا بمكة قد **تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين** فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس. وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم. وقالت طائفة أخرى من المؤمنين: سبحان الله ـ أو كما قالوا ـ أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم نستحل دماءهم أموالهم فكانوا كذلك فئتين والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شيء فنزلت: ﴿ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ ﴾ » رواه ابن أبي حاتم وقد روى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم قريب من هذا ».

يقول الرسول ﷺ عن هذه الآية: «**إنها طيبة وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد**».

ولقد جاء في تفسير الآية أنها تشمل طائفة أخرى وهم قوم هاجروا ثم تركوا الهجرة وعادوا إلى أوطانهم.

يقول القرطبي: « وذكر أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أنها نزلت في قوم **جاؤوا المدينة وأظهروا الإسلام فأصابهم وباء المدينة وحماها فأركسوا فخرجوا من المدينة** فاستقبلهم نفر من أصحاب النبي ﷺ فقالوا: ما لكم رجعتم؟ قالوا: أصابنا وباء المدينة

(1) سورة العنكبوت، الآية: 10.
(2) سورة النساء، الآية: 88.

فاجتويناها ـ كرهنا المقام بها ـ فقالوا: ما لكم في رسول الله ﷺ أسوة؟ فقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا هم مسلمون، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾، حتى جاؤوا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون ثم ارتدوا بعد ذلك فاستأذنوا رسول الله ﷺ إلى مكة ليأتوا ببضائع يتجرون فيها فاختلف فيهم المؤمنون فقائل يقول: هم منافقون وقائل يقول: هم مؤمنون، فبين الله تعالى نفاقهم وأنزل هذه الآية وأمر بقتلهم». أ هـ.

ويقول النسفي في تفسيرها: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر: ﴿فِي ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ أي: ما لكم اختلفتم في شأن قوم نافقوا نفاقًا ظاهرًا وتفرقتم فيهم فريقين ولم تقطعوا القول بكفرهم. وذلك أن قومًا من المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدو معتلين باجتواء المدينة فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة **حتى لحقوا بالمشركين** فاختلف المسلمون فيهم فقال بعضهم: « هم كفار » ، وقال بعضهم: هم مسلمون: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ ردهم إلى حكم الكفار فردوهم أيضًا ولا تختلفوا في كفرهم: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ ، أو تريدون أن تسموهم مهتدين، وقد أظهر الله ضلالهم فيكون تعييرًا لمن سماهم مهتدين: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟﴾ أي: ودوا لو تكفرون كفرا مثل كفرهم أي مستوين أنتم وهم في الكفر ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فلا توالوهم حتى يؤمنوا ؛ لأن الهجرة في سبيل الله بالإسلام ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الإيمان ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ كما كان حكم سائر المشركين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي ينتهون إليهم ويتصلون بهم والاستثناء من قوله:﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ ، دون الموالاة أي إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين أو قوم ممسكين عن القتال لا لكم ولا عليكم أي: الذين يتصلون بالمعاهدين أو الذين لا يقاتلونكم »[1]. أ هـ.

يقول ابن كثير: نسخ هذا آية السيف ببراءة. وقال البخاري: نزلت فيمن تخلف عن رسول الله ﷺ يوم أحد. ويقول القرطبي عن الروايات الأولى: قلت: وهذان القولان يعضدهما سياق آخر الآية في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾[2].

---

(1) أعطاهم حكم من يتصلون بهم من المشركين محاربين ومعاهدين وممسكين وأوجب القتل وقطع الموالاة في الأولى وأوجب قطع الموالاة دون القتل في الثانية والثالثة إلى أن نسخت أية السيف هذه الأحكام.

(2) سورة الأنفال، الآية: 72.

وحذر الله عز وجل المؤمنين من ولاية الكافرين، وأخبرهم أن هذا شأن المنافقين نفاق الكفر وأنهم إذا والوا الكافرين صاروا مرتدين منافقين في الدرك الأسفل من النار ليسوا من الله في شيء يقول جل وعلا: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (1) :

« قال أبو جعفر(2): وهذا نهي من الله عز وجل للمؤمنين أن يتخذوا الكفار أعوانًا وأنصارًا أو ظهورًا ومعنى ذلك لا تتخذوا أيها المؤمنين الكفار ظهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم فإنه من يفعل ذلك: ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ يعني: بذلك قد برئ من الله وبرئ الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهرون لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا لهم العداوة ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل كما حدثني المثنى قال: حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثنا معاوية بن صالح عن على عن ابن عباس قال: قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف ويخالفوهم في الدين وذلك قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾.

حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني محمد بن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف وابن أبى الحقيق وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة ابن المنذر بن زنبر وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا اليهود واحذروا لزومهم ومباطنتهم لا يفتنونكم عن دينكم فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم ولزومهم فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

عن الحسن في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيقول: لا يتخذ المؤمن الكافر وليًا من دون المؤمنين. حدثني موسى قال: حدثنا عمرو

(1) سورة آل عمران، الآية: 28، تفسير الطبري.
(2) هو الإمام الطبري.

قال: حدثنا أسباط عن السدي: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةً ﴾ **أما أولياؤهم فيوالونهم في دينهم ويظهرونهم على عورات المؤمنين فمن يفعل فهذا مشرك قد برئ الله منه.**

حدثني المثنى قال: حدثنا قبيصة بن عقبة قال: حدثنا سفيان عن ابن جريج عمن حدثه عن ابن عباس: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةً ﴾ التكلم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان.

حدثنا محمد بن عمرو قال: حدثنا أبو عاصم عن عيسى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ إلا مصانعة في الدنيا ومخالقة.

حدثني المثنى قال: حدثنا إسحق قال: حدثنا حفص بن عمرو قال: حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة في قوله: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةً ﴾ **ما لم يهرق دم مسلم وما لم يستحل ماله.**

حدثني المثنى قال: حدثني أبو حذيفة قال: حدثنا شبل عن أبى نجيح عن مجاهد مثله حديث محمد بن عمرو.

حدثني المثنى قال: حدثنا أبى إسحق قال: حدثنا ابن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع في قوله: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةً ﴾: «قال أبو العالية: **التقية باللسان وليس بالعمل** ».

وكذلك روى عن الضحاك وعن ابن عباس من وجوه عدة: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان، وعن الحسن: التقية جائزة إلى القيامة **ولا يقتل ولا يأتي مأثمًا**. وعنه أيضًا: ولا تقية في القتل.

ثم يقول الطبري: وقال آخرون:حدثنا بشر، حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة قوله:﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ ﴾ نهى الله المؤمنين أن يوادوا الكفار أو يتولوهم دون المؤمنين وقال الله: «إلا أن تتقوا منهم تقية[1] » الرحم من المشركين من غير أن يتولاهم في دينهم إلا أن يصل رحمًا له في المشركين [2].

يقول الطبري: القراءة الأولى أصح والمعنى الأول أظهر ». أهـ.

---

(1) قراءة شاذة.
(2) كقول الرسول ﷺ: «إن بني فلان ليسوا بي بأولياء ولكن هم رحم أبلها ببلالها»، وليست الرحم ولا حفظ اليد والجميل (كما قال يوم بدر عن المطعم بن عدى) من الولاء ما لم يؤد إلى مظاهرة على المسلمين.

وجاء في **تفسير الطبري أيضًا**: في تفسير قوله تعالى في سورة الممتحنة:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (1):

« فروى الطبري عن أبى نجيح عن مجاهد، هم الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا، وقال آخرون عنى بها من غير أهل مكة ممن لم يهاجروا. قال:ونسخ الله ذلك بعد الأمر بقتالهم(2). وذكر ذلك ابن زيد.

ورجح الطبري جميع من كان ذلك صفته فلم يخصص به بعضًا دون بعض لأن بر المؤمن من أهل الحرب من بينه وبينه قرابة أو نسب أو لمن لا قرابة بينه ولا نسب غير محرم ولا ينهى عنه **إذ لم يكن في ذلك دلالة له أن لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام أو تقوية لهم بكراع أو سلاح** وتبين صحة ما قلناه في ذلك الخبر الذي ذكرناه عن ابن الزبير في قصة أسماء وأمها.

ويقول في تفسير: ﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ تكونوا لهم أولياء ونصراء.

ويقول عن الآيات: نزلت في أسماء بنت أبى بكر كانت لها أم في الجاهلية يقال لها: قتيلة بنت عبد العزى فأتتها بهدايا وصناب وأقط وسمن فقالت: لا أقبل لك الهدية ولا تدخلي عليّ حتى يأذن رسول الله ﷺ. فذكرت ذلك عائشة لرسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾.

وهذا بيان سقناه لبيان الوجه الآخر لتفسير آيات آل عمران وأنه جائز لفظًا وغير ممتنع معنى.

ثم نعود إلى آيات آل عمران مرة أخرى وكذلك آيات المائدة فنقول:

ذكر الطبري أن هذه الآيات نزلت في:

1- قوم من المسلمين كانوا يخالطون حلفاءهم من اليهود وأهل النفاق منهم ويصافونهم بالمودة بالأسباب التي كانت بينهم في جاهليتهم قبل الإسلام فنهاهم الله عن ذلك وأن يستنصحوهم في شيء من أمورهم.

---

(1) سورة الممتحنة، الآيتان: 8- 9.
(2) على اعتبار أنهم منافقين كما في: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ [النساء: 88].

2- وذكر عن قتادة: نهى الله المؤمنين أن يستدخلوا المنافقين أو يؤاخوهم أو يتولوهم من دون المؤمنين

3- وذكر ابن عباس: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالًا من اليهود فأنزل الله عز وجل ينهاهم عن مباطنتهم تخوف الفتنة عليهم منهم ». أ هـ. الطبري.

لقد حذر الله المؤمنين من هذه الموالاة وذكر أنها الكفر الصريح البواح وذلك في سورة آل عمران والنساء والمائدة وكذلك الممتحنة، ثم بَيَّن أن هذه الموالاة للكافرين سمة أصيلة من سمات المنافقين نفاق الكفر الذين هم في الدرك الأسفل من النار وذلك في سورة البقرة والنساء والمائدة والتوبة والمجادلة والحشر وغير ذلك من السور.

يقول ابن كثير في تفسير سورة البقرة عن المنافقين في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (1):

« وبهذه نبه الله سبحانه وتعالى على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير ».

ثم يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (2):

« يقول نقلاً عن ابن جرير الطبري عن صور إفسادهم: «... **مظاهرتهم** أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا فذلك إفساد المنافقين في الأرض وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها ».

يقول ابن كثير: وهذا الذي قاله حسن فإن من الفساد في الأرض اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين. كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (3)، فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ (4)، ثم قال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ

---

(1) سورة البقرة، الآية: 8.
(2) سورة البقرة، الآيتان: 11-12.
(3) سورة الأنفال، الآية: 73.
(4) سورة النساء، الآية: 44.

لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [1]. إلى أن يقـــــــول: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ **أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هـؤلاء وهؤلاء**، كما قال محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس: أي إنما نريـد الإصـلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهـل الكتاب ويقـول الله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ يقــول: ألا إن هــذا الــذي يعتمدونــه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادًا ». أهـ.

ويقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى في سورة محمد:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ [2]:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ :

أي: مالأوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون ولهذا قال عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾.

ويقول في تفسير: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ :

« الأضغان جمع ضغن وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله القائمين على نصرته. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن سلمة عن عياض عن أبيه عـن أبي مسعود عقبة بن عمر قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنـى عليـه ثـم قال: « **إن منكم منافقين فمن سميت فليقم ـ ثم قال ـ قم يا فلان ـ قم يا فلان ـ حتـى سـمى ستة وثلاثين رجلا ثم قال:** « **إن منكم منافقين أو فيكم منافقين فاتقوا الله** ».

وذلك في تفسـير قولـه تعـالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ وهكذا أخرجها الله على لسان رسوله، وهكذا انتهى الأمر بهـم بعـد التغـاضي عنهم والمسامحة إلى الغلظة والمجاهدة وعلموا أن **من أظهر منهم النفاق قتل بـه كفـرًا** كـما هددهم الله في سورة الأحزاب فأخفوه ». أ هـ.

(1) سورة النساء، الآية: 145.

(2) سورة محمد، الآيات: 25- 29.

البـاب الرابـع

ضلالات الطوائف

المخالفة للسنة في قضية التوحيد

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفهرس

الفصل الأول
ضلالاتهم في باب الصفات

خطأ المتكلمين في تقرير التوحيد:

يقول ابن تيمية في مناقشته للأشاعرة [1] بعد كلام:

« وقال أبو بكر بن فورك: إنه سبحانه واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له، ثم يناقش مقصودهم لهذه المعاني الثلاثة فيقول:

1 - **أحدها: أنه الذي لا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتبعض ولا يتركب وربما قال بعضهم هذا تفسير الاسم الواحد**. وهذه الوحدانية التي ذكروها هنا، إذ ليس مرادهم بأنه لا ينقسم ولا يتبعض أنه لا ينفصل بعضه عن بعضه وأنه لا يكون إلهين اثنين ونحو ذلك مما يقول نحوا منه النصارى والمشركون فإن هذا مما لا ينازعهم فيه المسلمون وهو حق لا ريب فيه، وكذلك كان علماء السلف ينفون التبعيض عن الله بهذا المعنى. وإنما مرادهم [2] بذلك أنه لا يشاهد ولا يرى منه شيء دون شيء، ولا يدرك منه شيء دون شيء، ولا يعلم منه شيء دون شيء، ولا يمكن أن يشار إلى شيء منه دون شيء بحيث إنه ليس له في نفسه حقيقة قائمة عندهم بنفسها يمكنه هو أن يشير منها إلى شيء دون شيء، أو يرى عباده منها شيئا دون شيء وبحيث إذا تجلى لعباده يريهم من نفسه المقدسة ما شاء، فإن ذلك غير ممكن عندهم ولا يتصور عندهم أن يكون العباد محجوبين عنه بحجاب منفصل عنهم يمنع عن رؤيته، فإن الحجاب لا يحجب إلا ما هو جسم منقسم. ولا يتصور عندهم أن الله يكشف عن وجهه الحجاب ليراه المؤمنون، ولا أن يكون بحيث يلقاه العبد أو يصل إليه أو يدنو منه أو يقرب إليه في الحقيقة، فهذا ونحوه هو المراد عندهم بكونه لا ينقسم ويسمون ذلك نفي التجسيم إذ كان ما ثبت له ذلك كان جسمًا منقسمًا مركبًا والبارئ منزه عندهم عن هذه المعاني.

2 - **والمعنى الثاني من معاني الواحد عندهم: هو الذي لا شبيه له** وهذه الكلمة أقرب إلى

---

(1) كتاب الفتاوى جـ 5، ص 243- 244.
(2) أي مراد المتكلمين.

الإسلام ولكن أجملوها فجعلوا نفي الصفات أو بعضها داخلا في نفي التشبيه واضطربوا في ذلك على درجات لا تنضبط.

فالمعتزلة تزعم أن نفي العلم والقدرة وغير ذلك من التوحيد ونفي التشبيه والتجسيم. **والصفاتية (الأشعرية والكلابية وغيرهم)** تقول ليس ذلك[1] من التوحيد ونفي التجسيم والتشبيه، ثم هؤلاء مضطربون فيما ينفونه[2]من ذلك لكن وافقوا أولئك على أن ما نفوه من التشبيه وما نفوه من المعنى الذي سموه تجسيمًا هو التوحيد الذي لا يتم الدين إلا به وهو أصل الدين عندهم.

وكل من سمع ما جاءت به الرسل يعلم بالاضطرار أن هذه الأمور ليست مما بعث الله ورسوله، ولم يكن الرسول يعلم أمته هذه الأمور ولا كان أصحابه عليها، فكيف يكون هذا التوحيد الذي هو أصل الدين لم يدع إليه رسول الله ﷺ والصحابة والتابعون بل يعلم بالاضطرار أن الذي جاء به رسول الله ﷺ من الكتاب والسنة يخالف هذا المعنى الذي سماه **هؤلاء (الجهمية)** توحيدًا ؛ ولهذا ما زال سلف الأمة وأئمتها ينكرون ذلك ». أهـ.

وفي شرح العقيدة الأصفهانية[3]، وبعد أن يقرر ابن تيمية قواعد أهل السنة في مسائل الصفات[4]يقول:

والأشاعرة والكلابية طبقوا هذه القواعد في صفات الذات ونقضوها وعارضوها في صفات الأفعال.

والجهمية والمعتزلة: عارضوا هذه الصفات الفعلية فقالوا: إنه كما أنه خالق عادل بخلق وعدل لا يقوم به بل هو موجود في غيره فكذلك هو متكلم مريد بكلام، وإرادة لا تقوم به بل يقوم الكلام بغيره فمن سلم لهم هذا النقض كالأشعري ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد أظهر تناقضهم ولم يجيبوهم بجواب مستقيم.

---

(1) يعنى أن الأشاعرة لا تنفى العلم والقدرة ولا ترى أن إثبات هذه الصفات لله عز وجل تشبيه أو تجسيم.

(2) المعنى أن الأشاعرة والكلابية وغيرهم من المتكلمين الصفاتية غير المعتزلة مع إثباتهم للقدرة والعلم والإرادة وغير ذلك من صفات الذات ينفون غير ذلك من الصفات، ثم هم مختلفون فى ذلك فبعضهم ينفى صفات معينة بدعوى أن إثباتها تشبيه والبعض الآخر يثبتها ولا يرى فيها تشبيها ولكن ينفي غيرها لما رأى فى إثبات هذا البند من التشبيه وهكذا.

(3) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية، قدم له وعرف به حسنين مخلوف، طبعة دار الكتب الحديثة ص 62 . 63، الفتاوى الكبرى جـ 5، ص 55.

(4) راجع هذه القواعد من هذا البحث.

إلى أن يقول[1]: وإن سُلِّم أنه يتصف بها لا يقوم به فهذا هو أصل الجهمية الذين يصفونه بمخلوقاته ويقولون: إنه متكلم ومريد وراض وغضبان ومحب ومبغض وراحم بمخلوقات يخلقها منفصلة عنه لا بأمور تقوم بذاته ». أ هـ.

ويقول ابن تيمية في هذا التوحيد [2]: « **وهؤلاء الكلابية والأشعرية إنها أخذوه عن المعتزلة والجهمية** ولم يوافقوهم عليه كله بل وافقوهم في بعض دون بعض وهذا هو أصل جهم الذي أسس عليه ضلالاته وهؤلاء يفسرون التوحيد وأسم الله الواحد في أصول دينهم بثلاثة معان وليس في شيء منها التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل كتبه، ثم يختلفون في تحقيق تلك المعاني اختلافًا عظيمًا ». أ هـ.

ويقول عن أبى المعالي وأصحابه[3]: « والأصول التي يقررها هي أصول جهم بن صفوان في الصفات والقدر والإرجاء، وقد ظهر ذلك في أتباعه كالمدعى المغربي (ابن التومرت) في مرشدته وغيره فإن هؤلاء في القدر يقولون بقول جهم يميلون إلى الجبر وفي الإرجاء بقول جهم أيضًا لأن الإيمان (عندهم) هو المعرفة.

ويقول ابن تيمية [4]: « **ولهذا لما كان أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وأبو الحسن الأشعري وأبو العباس القلانسى ممن أخذ أصل الكلام في التوحيد عن المعتزلة** وخالفوهم في بعض دون بعض يقع في كلامهم من هذا التوحيد المخالف للتوحيد المنزل من عند الله ما يقع كان الناس ينبهون على ذلك حتى ذكر شيخ الإسلام قال: سمعت عدنان بن عبده النميري يقول: سمعت أبا عمر البسطامي يقول: كان أبو الحسن الأشعري أولًا ينتحل الاعتزال ثم رجع فتكلم عليهم وإنما مذهبه التعطيل إلا أنه رجع من التصريح إلى التمويه. وقال الشيخ أبو النصر السجزي في رسالته إلى أهل اليمن: ولقد حكى لي محمد بن عبد الله المالكي المغربي وكان فقيهًا صالحاً عن الشيخ أبى سعيد البرقي وهو من شيوخ المالكيين ببرقة عن أستاذه خلف المعلم، وكان من فقهاء المالكيين أنه قال: الأشعري أقام أربعين سنة على الاعتزال ثم أظهر التوبة فرجع عن الفروع وثبت على الأصول، قال أبو نصر: هذا كلام خبير بمذهب الأشعري وعورته ؛ ولهذا قال محمد بن

---

(1) ا لفتاوى الكبرى جـ5، ص 62- 63.
(2) المصدر السبق ص 231.
(3) المصدر السابق جـ5، ص 304.
(4) المصدر السابق جـ 5، ص 247.

خويز منداد إمام المالكية في وقته في العراق في الكلام الذي ذكره عنه أبو عمر بن عبد البر قال: أهل البدع والأهواء عند مالك وأصحابه الذين ترد شهادتهم هم أهل الكلام قال: فكل متكلم فهو عندهم من أهل الأهواء والبدع عند مالك وأصحابه وكل متكلم فهو عندهم من أهل الأهواء أشعريًا كان أو غير أشعري. أ هـ.

ويذكر ابن تيمية قبل ذلك عن أصحاب الشافعي وأبى حنيفة في ذم الكلام الذي سماه المتأخرون علم التوحيد وأوجبوه على كل مكلف ويذكر تبرؤ الشافعية من الأشاعرة في أكثر من موضع من كتبه.

ومن ذلك: « قال الشيخ أبو الحسن الكرجي[1]: ومعروف شدة الشيخ أبى حامد الأسفرايني على أهل الكلام حتى ميز أصول فقه الشافعي من أصول الأشعري وعلق عنه الإمام أبو بكر الرازقاني وهو عندي وبه اقتدى الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتابيه "اللمع والتبصرة" حتى لو وافق قول الأشعري وجهًا لأصحابنا ميزه وقال: هو قول بعض أصحابنا وبه قالت الأشعرية ولم يعدهم من أصحاب الشافعي[2]، استنكفوا منهم ومن مذهبهم في أصول الفقه فضلاً عن أصول الدين ». أ هـ.

ويقول ابن تيمية:

3- **والمعنى الثالث[3] من معاني التوحيد عند هؤلاء الأشعرية كالقاضي أبى بكر وغيره هو أنه سبحانه لا شريك له في الملك بل هو رب كل شيء**، وهذا معنى صحيح. وهو حق وهو أجود ما اعتصموا به من الإسلام في أصولهم حيث اعترفوا فيها بأن الله خالق كل شيء ومربيه ومدبره. والمعتزلة وغيرهم يخالفون في ذلك حيث يجعلون بعض المخلوقات [4] لم يخلقها الله ولم يحدثها لكن مع هذا قد ردوا قولهم ببدع غلوا فيها وأنكروا ما خلقه الله من الأسباب وما نطق به الكتاب والسنة من أن الله يخلق الأشياء بعضها ببعض ». أ هـ.

وما أجمله ابن تيمية هنا فصله في موضع آخر من رسالته فقال مخاطبًا الأشعرية[5]:

« وأيضًا فأنتم في مسائل الأسماء والأحكام قابلتم المعتزلة تقابل التضاد حتى رددتم بدعتهم ببدع تكاد أن تكون مثلها بل هي من وجه شر منها ومن وجه دونها فإن المعتزلة

---

(1) درء التعارض, جـ1, ص283.
(2) رغم انتسابهم إليه وقالوا عنهم: هؤلاء فلاسفة مرجئة ولم يكن الشافعي فيلسوفًا ولا مرجئًا.
(3) الفتاوى الكبرى جـ 5، ص 248.
(4) أفعال العباد فيقولون: هم يخلقون أفعالهم بقدرة أودعها الله فيهم.
(5) المصدر السابق جـ 5، ص 321– 322.

جعلوا الإيمان اسمًا متناولًا لجميع الطاعات من القول والعمل، ومعلوم أن هذا قول السلف والأئمة وقالوا: إن الفاسق الملي لا يسمى مؤمنًا ولا كافرًا وقالوا: إن الفساق مخلدون في النار لا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها. وهم في هذا القول مخالفون للسلف والأئمة فخلافهم في الحكم للسلف.

وأنتم وافقتم الجهمية في الإرجاء والجبر فقلتم الإيمان تصديق القلب وإن لم يتكلم بلسانه وهذا عند الأئمة والسلف شر من قول المعتزلة، ثم إنكم قلتم: إنا لا نعلم الفساق هل يدخل أحد منهم النار أو لا يدخلها أحد منهم فوقفتم وشككتم في نفوذ الوعيد في أهل القبلة (جملة) ومعلوم أن هذا من أعظم البدع عند السلف والأئمة فإنهم لا يتنازعون أنه لابد أن يدخلها من يدخلها من أهل الكبائر فأولئك قالوا: لابد أن يدخلها كل فاسق وأنتم قلتم: لا نعلم هل يدخلها فاسق أم لا؟ فتقابلتم في هذه البدعة وقولكم أعظم بدعة من قولكم وأعظم مخالفة للسلف والأئمة، وعلى قولكم لا نعلم شفاعة النبي ﷺ في أهل النار ؛ لأنه لا يعلم هل يدخلها أحد أم لا؟ وقولكم إلى إفساد الشريعة أقرب من قول المعتزلة ». أهـ.

ويقول ابن تيمية في "الرسالة التدمرية"(1):

« وبهذا وغيره يعرف ما وقع من الغلط في مسمى التوحيد فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع فيقولون: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له وواحد في أفعاله لا شريك له:

وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو النوع الثالث وهو: توحيد الأفعال وهو أن خالق العالم واحد وهم يحتجون على ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها، **ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب وأن هذا هو معنى قولنا: لا إله إلا الله حتى يجعلوا معنى الألهية القدرة على الاختراع**، ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ أولًا لم يكونوا يخالفونه في هذا بل كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء حتى إنهم كانوا يقرون بالقدر وهم مع هذا مشركون. وقد تبين أنه ليس في العالم من ينازع في أصل هذا الشرك ولكن غاية ما يقال: إن من الناس من جعل بعض الموجودات خلقًا لغير الله كالقدرية وغيرهم لكن هؤلاء يقرون بأن الله خالق العباد وخالق قدرتهم، وإن قالوا إنهم خلقوا أفعالهم. وكذلك أهل الفلسفة والطبع والنجوم الذي يجعلون بعض المخلوقات مبدعة

---

(1) الرسالة التدمرية .

لبعض الأمور، هم ـ مع الإقرار بالصانع ـ يجعلون هذه الفاعلات مصنوعة مخلوقة، لا يقولون: إنها غنية عن الخالق مشاركة له في الخلق فأما من أنكر الصانع فذاك جاحد معطل للصانع كالقول الذي أظهره فرعون والكلام الآن مع المشركين بالله، المقرين بوجوده فإن هذا التوحيد الذي قرروه لا ينازعهم فيه هؤلاء المشركون بل يقرون به مع أنهم مشركون كما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع وكما علم بالاضطرار من دين الإسلام.

وكذلك النوع الثاني وهو قولهم: لا شبيه له في صفاته فإنه ليس في الأمم من أثبت قديمًا مماثلًا له في ذاته سواء قال: إنه يشاركه أو قال: إنه لا فعل له بل من شبه شيئا من مخلوقاته فإنما يشبه في بعض الأمور وقد علم بالعقل امتناع أن يكون له مثل في المخلوقات يشاركه فيما يجب أو يجوز أو يمتنع عليه، فإن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين كما تقدم، وعلم أيضا بالعقل أن كل موجودين قائمين بأنفسهما فلابد بينهما من قدر مشترك كاتفاقهما في مسمى الوجود، والقيام بالنفس والذات ونحو ذلك، وأن نفي ذلك يقتضي ـ التعطيل المحض، وأنه لا بد من إثبات خصائص الربوبية، وقد تقدم الكلام على ذلك **ثم إن الجهمية من المعتزلة وغيرهم** أدرجوا نفي الصفات في مسمى التوحيد فصار من قال: إن لله علمًا أو قدرة أو إنه يرى في الآخرة أو إن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق يقولون: إنه مشبه ليس بموحد **وزاد عليهم غلاة الفلاسفة والقرامطة** فنفوا أسماءه الحسنى وقالوا: من قال إن الله عليم قدير عزيز حكيم: فهو مشبه ليس بموحد، **وزاد عليهم غلاة الغلاة** وقالوا: لا يوصف بالنفي ولا الإثبات، لأن في كل منهما تشبيها له، وهؤلاء كلهم وقعوا من جنس التشبيه فيما هو شر مما فروا منه، فإنهم شبهوه بالممتنعات والمعدومات والجمادات فرارًا من تشبيهه بزعمهم بالأحياء، ومعلوم أن هذه الصفات الثابتة لله لا تثبت له على ما ثبت لمخلوق أصلًا وهو سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فلا فرق بين إثبات الذات وإثبات الصفات، فإذا لم يكن في إثبات الذات إثبات مماثلة للذوات لم يكن في إثبات الصفات مماثلة له في ذلك فصار هؤلاء الجهمية المعطلة يجعلون هذا التوحيد (توحيدًا) ويجعلون مقابل ذلك التشبيه ويسمون أنفسهم (الموحدين).

وكذلك النوع الثالث(1) **وهو قولهم: هو واحد لا قسيم له في ذاته** أو لا جزء له أو لا بعض له لفظ مجمل فإن الله سبحانه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد فيمتنع عليه أن يتفرق أو يتجزأ أو يكون قد ركب من أجزاء لكنهم يدرجون في هذا اللفظ نفي

(1) الأول.

علوه على عرشه ومباينته لخلقه وامتيازه عنهم ونحو ذلك من المعاني المستلزمة لنفيه وتعطيله ويجعلون ذلك من التوحيد فقد تبين أن ما يسمونه توحيدًا فيه ما هو حق وفيه ما هو باطل.

إلى أن يقول: وإذا تبين أن غاية ما يقرره هؤلاء النظار - أهل الإثبات[1] للقدر المنتسبون إلى السنة - إنما هو توحيد الربوبية وأن الله رب كل شيء ومع هذا فالمشركون كانوا مقرين بذلك مع إنهم مشركون وكذلك طوائف من أهل التصوف المنتسبين إلى المعرفة والتحقيق والتوحيد غاية ما عندهم من التوحيد هو شهود هذا التوحيد وأن نشهد أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه ولا سيما إذا غاب العارف بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده وبمعروفه عن معرفته ودخل في فناء توحيد الربوبية، بحيث يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل، فهذا عندهم هو الغاية التي لا غاية وراءها. ومعلوم أن هذا هو تحقيق ما أقر به المشركون من التوحيد ولا يصير الرجل بمجرد هذا التوحيد مسلمًا فضلًا عن أن يكون وليًا لله ومن سادات الأولياء.

وكان جهم ينفي الصفات ويقول بالجبر فهذا تحقيق قول جهم لكنه إذا ثبت الأمر والنهي والثواب والعقاب فارق المشركين من هذا **الوجه لكن جهمًا ومن اتبعه يقول بالإرجاء،** فيضعف الأمر والنهي والثواب والعقاب عنده. النجارية والضرارية وغيرهم يقربون من جهم في مسائل القدر والإيمان مع مقاربتهم له أيضًا في نفي الصفات **والكلابية والأشعرية** خير من هؤلاء في باب الصفات فإنهم يثبتون لله الصفات العقلية وأئمتهم يثبتون الصفات الخبرية في الجملة كما فصلت أقوالهم في غير هذا الموضع، وأما في باب القدر ومسائل الأسماء والأحكام فأقوالهم متقاربة.

والكلابية هم: أتباع أبى محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب الذي سلك الأشعري خطته وأصحاب ابن كلاب كالحارث وأبى العباس القلانسى ونحوهما خير من الأشعرية في باب[2] الصفات والقدر ومسائل الأسماء والأحكام، وإن كانت أقوالهم جميعًا متقاربة في هذا وفي هذا **وأما المعتزلة** فهم ينفون الصفات ويقاربون قول جهم لكنهم ينفون القدر، فهم وإن عظموا الأمر والنهي والوعد والوعيد وغلوا فيه فهم يكذبون بالقدر، ففيهم نوع من الشرك من هذا الباب والإقرار بالأمر والنهي والوعد والوعيد مع إنكار القدر خير من الإقرار بالقدر مع إنكار الأمر والنهي والوعد والوعيد؛ ولهذا لم يكن في زمن

---

(1) الأشاعرة.

(2) أي إنه في جميع هذه الفرق جبر وإرجاء وتعطيل بقدر متفاوت ورأس الجبر والإرجاء والتعطيل جهم.

الصحابة والتابعين من ينفي الأمر والنهي والوعد والوعيد فكان قد نبغ[1] فيهم القدرية كما نبغ فيهم الخوارج والحرورية. وإنما يظهر من البدع أولًا ما كان أخفى وكلما ضعف من يقوم بنور النبوة قويت البدعة.

فهؤلاء المتصوفون الذين يشهدون الحقيقة الكونية مع إعراضهم عن الأمر والنهي شر من القدرية المعتزلة ونحوهم. أولئك يشبهون المجوس وهؤلاء يشبهون المشركين الذين قالوا [2]: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [3] ». أهـ.

---

(1) ظهر.
(2) المتصوفة جبرية يحتجون بالقدر على الذنب.
(3) سورة الأنعام، الآية: 148.

الفصل الثاني
ضلالاتهم في مسائل القدر

يخاطب ابن تيمية الأشاعرة قائلًا [1]:

« **وكذلك في مسائل القدر فإن المعتزلة أنكروا أن يكون الله خالق أفعال العباد** أو مريدًا لجميع الكائنات بل الإرادة عندهم بمعنى المحبة والرضا، وهو لا يحب ويرضى إلا ما أمر به فلا يريد إلا ما أمر به وأنتم وافقتموهم على أصلهم الفاسد، وقاسمتموهم بعد ذلك الضلال، فصرتم وهم في هذه المسائل كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء: فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب وقلتم: إن الإرادة بمعنى المحبة والرضا كما قالت المعتزلة، **لكن قلتم وهو أراد كل ما يفعله العباد فيجب أن يكون محبًا راضيًا لكل ما يفعله العباد حتى الكفر والفسوق والعصيان** وتأولتم قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾، على المؤمنين من عباده. وعلى قولكم: لا يرضى لعباده الإيمان يعني الكافرين منهم أو عندكم كل من فعل فعلًا فقد رضيه منه ومن لم يفعله لا يرضاه منه فقد رضي عندكم من إبليس وفرعون ونحوهما كفرهم، ولم يرض منهم الإيمان، وكذلك قلتم: في قوله: ﴿ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ أي لا يحبه للمؤمنين وأما من قال منكم لا يحبه دينًا أو لا يرضاه دينا فهذا أقرب لكنه بمنزلة قولكم: لا يريده دينا ولا يشاؤه دينا فيجوز عندكم أن يقال: يحب الفساد ويرضاه أي يحبه فسادًا ويرضاه فسادًا كما أراده فسادًا.

وأنكرتم على المعتزلة ما أنكره المسلمون عليهم **وهو قولهم**: إن الله لا يقدر أن يفعل بالكفار غير ما فعل بهم من اللطف، وأنكرتم على من قال منهم: إن خلاف المعلوم غير مقدور، **ثم قلتم**: إن العبد لا يقدر على غير ما علم منه وإنه لا استطاعة له إلا إذا كان فاعلًا فقط، فأما من لم يفعل فإنه لا استطاعة له أصلًا فخالفتم قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾، ونحو ذلك من النصوص، ولزمكم أن كل من لم يؤمن بالله فإنه لم يكن قادرًا على الإيمان، وكل من ترك طاعة الله فإنه لم يكن مستطيعًا لها. فإن ضمَّ ضامٌ إلى هذا قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾، وقول النبي ﷺ: « **إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم** »، تركب من هذين أن كل كافر وفاجر فإنه قد اتقى الله ما استطاع وأنه قد أتى فيما أمر به بما استطاع وإذا لم يستطع غير ما فعل، وأنتم إن كنتم لا

(1) الفتاوى الكبرى جـ 5، ص 322 . 326 وما بعدها.

تلتزمون ذلك فهو لازم قولكم إذ لم تجعلوا الاستطاعة نوعين.

وقول القدرية الذين يجعلون استطاعة العبد صالحة للنوعين ولا يثبتون الاستطاعة التي هي مناط الأمر والنهى أقرب إلى الكتاب والسنة والشريعة **من قولكم**: إنه لا استطاعة إلا للفاعل وإن من لم يفعل فعلًا فلا استطاعة له عليه، وكل من تدبر القولين علم أن كلًا منهما وإن كان فيه خلاف السنة ما فيه فقولكم أكثر خلافًا للسنة.

وكذلك المعتزلة قالوا: بأن الله لم يخلق أفعال العباد بل العبد هو الذي يحدث أفعاله فضلّوا بقولهم: إن الله لم يخلق أفعال العباد، وقلتم أنتم: إن العبد لا يفعل أفعاله بل هي فعل الله تعالى ولكن هي كسب للعبد، ولم تفرقوا بين الكسب والفعل بفرق معقول وادعيتم العلم الضروري بأن كون العبد فاعلًا بعد أن لم يكن فاعلًا أمر محدث ممكن فلابد له من محدث واجب، وهذا حق أصبتم فيه دون المعتزلة، لكن من المعتزلة من ادعى العلم الضروري بأن العبد محدث أفعاله وهذا أيضًا حق أصابوا فيه دونكم .

إلى أن يقول: **وأنتم لم تثبتوا القدر حتى أبطلتم ما في أمره ونهيه بل ما في خلقه وأمره من الحكم والمصالح والمناسبات وزعمتم أن الرد على القدرية لا يتم إلا بنفي تحسين العقل وتقبيحه مطلقًا وأن تجعل الأفعال كلها سواء في أنفسها**. لا فرق في نفس الأمر بين الصلاة والزنا إلا من جهة حكم الشرع بإيجاب أحدهما وتحريم الآخر، فصار قولكم مدرجة إلى فساد الدين والشريعة وذلك أعظم فسادًا من التكذيب بالقدر». أهـ.

ويقول ابن تيمية في كتاب "النبوات"[1]:

« وأما الأشعري فالمعروف عنه وعن أصحابه أنهم يوافقون جهمًا في قوله في الإيمان وأنه مجرد تصديق القلب أو معرفة القلب، لكن قد يظهرون مع ذلك قول أهل الحديث ويتأولونه ويقولون بالاستثناء على الموافاة فليسوا موافقين لجهم من كل وجه وإن كانوا أقرب الطوائف إليه في الإيمان وفي القدر أيضًا **فإن رأس الجبرية يقول: ليس للعبد فعل البتة**، والأشعري يوافقه على أن العبد ليس بفاعل ولا له قدرة مؤثرة في الفعل ولكن يقول هو كاسب، وجهم لا يثبت له شيئاً، ولكن هذا الكسب يقول أكثر الناس: إنه لا يعقل فرق بين الفعل الذي نفاه والكسب الذي أثبته، وقالوا عجائب الكلام ثلاثة: طفرة النظام وأحوال أبى هاشم، وكسب الأشعري وأنشدوا:

مما يقال ولا حقيقة عنده معقولة تدنوا إلى الأفهام

---

(1) النبوات ص 143–144.

الكسب عند الأشعرى والحال عند البهشمى وطفرة النظام

ويقول في نفس الكتاب[1]:

« والنفاة لما نفوا الحسن والقبح في نفس الأمر قالوا: لا فرق فيما يخلقه الله وما يأمر به بين فعل وفعل وليس في نفس الأمر حسن ولا قبح ولا صفات توجب ذلك ».

إلى أن يقول: « **وقدرة العبد عند شيخهم غير مؤثرة** في المقدور ولا يقول: إن العبد فاعل في الحقيقة بل كاسب ولم يذكروا بين الفعل والكسب فرقًا معقولًا بل حقيقة قولهم قول جهم: إن العبد لا قدرة له ولا فعل ولا كسب والله عندهم فاعل فعل العبد، وفعله هو نفس مفعوله، فصار الرب عندهم فاعلًا لكل ما يوجد من أفعال العباد ويلزمهم[2] أن يكون هو الفاعل للقبائح وأن يتصف بها على قولهم: إنه يوصف بالصفات الفعلية القائمة بغيره.

إلى أن يقول: فما بقى بمكنتهم أن يفرقوا بين ممكن وممكن من جميع الأجناس ، أي يقولوا: هذا يحسن من الرب فعله وهذا يتنزه عنه، بل يجوز عندهم أن يفعل كل ممكن مقدور والظلم عندهم هو فعل ما نهى المرء عنه أو التصرف في ملك الغير وكلاهما ممتنع في حق الله، فأما أن يكون هناك أمر ممكن مقدور وهو منزه عنه فهذا عندهم لا يجوز ؛ فلهذا جوزوا عليه كل ما يمكن ولا ينزهونه عن فعل بكونه قبيحًا أو نقصًا أو مذمومًا أو نحو ذلك، بل يعلم ما يقع وما لا يقع بالخبر أو بخبر الرسول كما علم بخبره المأمور والمحظور والوعد والوعيد والثواب والعقاب أو بالعادة مع أن العادة يجوز انتقاضها عندهم، لكن قالوا: قد يعلم بالضرورة عدم ما يجوز وقوعه من غير فرق لا في الوجود ولا في العلم بين ما علموا انتفاءه وما لم يعلموه، إذ أصل قولهم هو جواز التفريق بين المتماثلين بلا سبب، فالإرادة القديمة عندهم ترجع مثلا على مثل بلا سبب في خلق الرب وفي أمره وكذلك عندهم قد يحدث في قلب العبد علمًا ضروريًا بالفرق بين المتماثلين بلا سبب **فلهذا قالوا: إن الشرع لا يأمر وينهى لحكمة ولم يعتمدوا على المناسبة وقالوا: علل الشرع أمارات.** كما قالوا: إن أفعال العباد أمارة على السعادة والشقاء فقط من غير أن يكون في أحد الفعلين معنى يناسب الثواب أو العقاب ومن أثبت المناسبة من متأخريهم كأبي حامد ومن تبعه قالوا: عرفنا بالاستقراء أن المأمور به مقترن به مصلحة العباد وهو حصول ما ينفعهم والمنهي عنه يقترن به المفسدة فإذا وجد الأمر والنهى علم وجود قرينه

---

(1) النبوات ص104 – 107.

(2) لا يقولون ذلك وإن كان هذا هو لازم مذهبهم ولازم المذهب ليس بمذهب ما لم يلتزموه.

الذي علم بعادة الشرع من غير أن يكون الرب أمر به لتلك المصلحة ولا نهى عنه لتلك المفسدة، وجمهورهم وأئمتهم على أنه يمتنع أن يفعل لحكمة، لكن الآمدى قال: إن ذلك جائز غير واجب فلم يجعله واجبًا ولا ممتنعًا ، **وهذا الأصل دخل في جميع أبواب الدين أصوله وفروعه** في خلق الرب لما يخلقه ورزقه وإعطائه ومنعه وسائر ما يفعله تبارك وتعالى ودخل في أمره ونهيه وجميع ما يأمر به وينهى عنه ودخل في المعاد، فعندهم يجوز أن يعذب الله جميع أهل العدل والصلاح والدين والأنبياء والمرسلين بالعذاب الأبدي، وأن ينعم جميع أهل الكذب والظلم والفواحش بالنعيم الأبدي، لكن بمجرد الخبر عرفنا أنه لا يفعل هذا، ويجوز عندهم أن يعذب من لا ذنب له أصلاً بالعذاب الأبدي ».

إلى أن يقول: « وليس عندهم من أفعال الرب ما يتنزهونه عنه أو ما تقتضي الحكمة وجوده ». إلى أن يقول: « **ولهذا قال جمهور الناس عن هؤلاء إنهم لا ينزهون الرب عن السفه والظلم والرب تعالى أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأعدل العادلين** والحكمة وضع الأشياء في مواضعها والظلم وضع الشيء في غير موضعه ومن تدبر حكمته في مخلوقاته ومشروعاته رأى ما يبهر العقول فإنه مثلاً خلق العين واللسان ونحوهما من الأعضاء لمنفعة وخلق الرجل والظفر ونحو ذلك لمنفعة فلا تقتضي الحكمة أن تستعمل العين واللسان حيث يستعمل الرجل الظفر ولا أن تستعمل الرجل واليد حيث تستعمل العين واللسان وهذا من حكمته موجود في أعضاء الإنسان وسائر الحيوان والنبات وسائر المخلوقات ».

إلى أن يقول: « وهو سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لكن لا يشاء إلا ما يناسب حكمته ورحمته وعدله ». أهـ.

ويقول ابن تيمية في إثبات العدل[1] في تفسير الحديث القدسي فيما روى الرسول ﷺ عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: « **يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا** »:

« أما قوله تعالى: « **يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي** » ففيه مسألتان كبيرتان كل منهما ذات شعب وفروع:

أحدهما: في الظلم الذي حرمه الله على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾، وقوله: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾، ونفى إرادته بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾، وقوله:

(1) الفتاوى الكبرى جـ1، ص 402 – 403 المسألة (232).

﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا ﴾، ونفى خوف العباد له بقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ ، **فإن الناس تنازعوا في معنى الظلم تنازعًا صاروا فيه بين طرفين متباعدين ووسط بينهما وذلك بسبب البحث في القدر ومجامعته للشرع إذ الخوض في ذلك بغير علم تام أوجب ضلال عامة الأمم، ولهذا نهى النبي ﷺ عن التنازع في القدر،** فذهب المكذبون بالقدر القائلون بأن الله لم يخلق أفعال العباد ولم يرد أن يكون إلا ما أمر بأن يكون وغلاتهم المكذبون بتقدم علم الله وكتابه بما سيكون من أفعال العباد من المعتزلة وغيرهم إلا أن الظلم منه هو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض وشبهوه ومثلوه في الأفعال بأفعال العباد حتى كانوا هم ممثلة الأفعال وضربوا لله الأمثال ولم يجعلوا له المثل الأعلى بل أوجبوا عليه وحرموا ما رأوا أنه يجب على العباد ويحرم بقياسه على العباد وإثبات الحكم في الأصل بالرأي وقالوا عن هذا: إذا أمر العبد ولم يعنه بجميع ما يقدر عليه من وجوه الإعانة كان ظالمًا له والتزموا أنه لا يقدر أن يهدي ضالًا كما قالوا: إنه لا يقدر أن يضل مهتديًا، وقالوا عن هذا: إذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما بإعانته على فعل المأمور به كان ظالمًا إلى أمثال ذلك من الأمور التي هي من باب الفضل والإحسان جعلوا تركه لها ظلمًا، وكذلك ظنوا أن التعذيب لمن كان فعله مقدرًا ظلم له ولم يفرقوا بين التعذيب لمن قام به سبب استحقاق ذلك ومن لم يقم وإن كان ذلك الاستحقاق خلقه لحكمة أخرى عامة أو خاصة.

وهذا الموضع زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام فعارض هؤلاء قوم آخرون من أهل الكلام المثبتين للقدر فقالوا: ليس للظلم منه حقيقة يمكن وجودها بل هو من الأمور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدورًا ولا أن يقال: إنه هو تارك له باختياره ومشيئته وإلا فمهما قدر في الذهن وكان وجوده ممكنًا والله قادر عليه فليس بظلم منه سواء فعله أو لم يفعله.

ويسترسل ابن تيمية في إبطال هذا الأصل استنادًا إلى التفسير الصحيح لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾(1)، وقوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (2)، وكذلك قوله: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (3)، وقوله: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

(1) سورة طه، الآية: 112.
(2) سورة ص، الآية: 85.
(3) سورة فصلت، الآية: 46.

وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [1] .

إلى أن يقول [2]: وأما من قال: هو التصرف في ملك الغير فهذا ليس بمطرد ولا ينعكس، فقد يتصرف الإنسان في ملك غيره بحق ولا يكون ظالمًا وقد يتصرف في ملكه بغير حق فيكون ظالما، وظلم العبد لنفسه كثير في القرآن وكذلك من قال: فعل المأمور خلاف ما أمر به ونحو ذلك إن سلم صحة هذا الكلام، فالله سبحانه قد كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم فهو لا يفعل خلاف ما كتب ولا يفعل ما حرم.

إلى أن يقول[3]: وعلى قول الفريق الثاني: ما ثَمَّ فعل يجب تنزيه الله عنه أصلًا والكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها على خلاف ذلك، ولكن متكلموا الإثبات لما ناظروا متكلمة النفي ألزموهم لوازم لم ينفصلوا عنها إلا بمقابلة الباطل بالباطل وهذا مما عابه الأئمة وذموه كما عاب الأوزاعي والزبيدي والثوري وأحمد وغيرهم مقابلة القدرية بالغلو في الإثبات وأمروا بالاعتصام بالكتاب والسنة. وكما عابوا أيضًا على من قابل الجهمية نفاة الصفات بالغلو في الإثبات حتى دخل في تمثيل الخالق بالمخلوق ». أهـ.

---

(1) سورة النجم، الآيات: 36 – 39.
(2) الفتاوى الكبرى جـ1 ص 407.
(3) المصدر السابق جـ1 ص 408.

الفصل الثالث
إغفالهم للتوحيد العملي (توحيد العبادة)
أسقطهم في البدع الشركية

يقول ابن تيمية في "اقتضاء الصراط المستقيم"(1):

« وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (2)، فأهل الرحمة متفقون مجتمعون، والمشركون فرقوا دينهم وكانوا شيعا ؛ ولهذا نجد ما أحدث من الشرك والبدع يفترق أهله فكان لكل قوم من مشركي العرب طاغوت يتخذونه ندًا من دون الله فيقربون له ويستعينون به ويشركون به وهؤلاء ينفرون عن طاغوت هؤلاء، وهؤلاء ينفرون عن طاغوت هؤلاء، بل قد يكون لأهل هذا الطاغوت شريعة ليست للآخرين كما كان أهل المدينة يهلون لمناة الثالثة الأخرى، ويتحرجون من الطواف بين الصفا والمروة حتى أنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ (3).

وهكذا نجد من يتخذ شيئا من نحو هذا الشرك كالذين يتخذون القبور وآثار الأنبياء والصالحين مساجد تجد كل قوم يقصدون بالدعاء والاستعانة والتوجه من لا تعظمه الطائفة الأخرى بخلاف أهل التوحيد فإنهم يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئا في بيوته التي قد أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، مع أنه قد جعل لهم الأرض كلها مسجدًا وطهورًا.

وإن حصل بينهم تنازع في شيء مما يسوغ فيه الاجتهاد لم يوجب ذلك لهم تفرقًا ولا اختلافًا، بل هم يعلمون أن المصيب منهم له أجران وأن المجتهد المخطئ له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور له والله هو معبودهم وحده، إياه يعبدون وعليه يتوكلون، وإياه يخشون ويرجون وبه يستعينون ويستغيثون وله يدعون ويسألون. فإن خرجوا إلى الصلاة في المساجد كانوا مبتغين فضلًا منه ورضوانًا كما قال تعالى في نعتهم: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾ (4).

إلى أن يقول: وقد زين الشيطان لكثير من الناس سوء عملهم واستزلهم عن إخلاص الدين لربهم إلى أنواع من الشرك، فيقصدون بالسفر والزيارة رضى غير الله،

(1) اقتضاء الصراط المستقيم ص456- 465.
(2) سورة هود، الآيتان: 118- 119.
(3) سورة البقرة، الآية: 158.
(4) سورة المائدة، الآية: 2.

والرغبة إلى غيره ويشدون الرحال إما إلى قبر نبي أو صاحب أو صالح أو من يظنون أنه نبي أو صاحب أو صالح داعين له راغبين إليه، ومنهم من يظن أن المقصود من الحج هو هذا فلا يستشعر إلا قصد المخلوق المقبور ومنهم من يرى أن ذلك أنفع له من حج البيت، ومن شيوخهم من يقصد حج البيت فإذا وصل إلى المدينة رجع مكتفيًا بزيارة القبر وظن أن هذا أبلغ ومن جهالهم من يتوهم أن زيارة القبور واجبة. وأكثرهم يسأل الميت المقبور كما يسأل الحي الذي لا يموت فيقول: يا سيدي فلان اغفر لي وارحمني وتب عليّ أو يقول: اقض عنى الدين وانصرني على فلان وأنا في حسبك وجوارك، وقد ينذرون أولادهم للمقبور ويسيبون له السوائب من البقر والغنم وغيرها كما كان المشركون يسيبون السوائب لطواغيتهم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (1)، ومن السدنة من يضلل الجهال فيقول: أنا أذكر حاجتك لصاحب الضريح وهو يذكرها للنبي فيذكرها لله، ومنهم من يعلق على القبر المكذوب أو غير المكذوب من الستور والثياب ويضع عنده من مصوغ الذهب والفضة **مما قد أجمع المسلمون على أنه من دين المشركين وليس من دين الإسلام**. والمسجد الجامع معطل خراب صورة ومعنى.

وما أكثر من يعتقد من هؤلاء أن صلاته عند القبر المضاف إلى بعض المعظمين مع أنه كذب في نفس الأمر أعظم من صلاته في المساجد الخالية من القبور الخالصة لله فيزدحمون للصلاة في مواضع الإشراك المبتدعة التي نهى النبي ﷺ عن اتخاذها مساجد وإن كانت على قبور الأنبياء، ويهجرون الصلاة في البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه والتي قال فيها: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (2).

ومن أكابر شيوخهم من يقول: الكعبة في الصلاة قبلة العامة والصلاة إلى قبر الشيخ فلان مع استدبار الكعبة قبلة الخاصة، وهذا وأمثاله من الكفر الصريح باتفاق علماء المسلمين، وقد كتبنا في ذلك في غير هذا الموضع ما لا يتسع له هذا الموضع، وإنما نبهنا فيه على رؤوس المسائل وجنس الدلائل والتنبيه على مقاصد الشريعة وما فيها من إخلاص الدين لله وعبادته وحده لا شريك له وما سدته من الذريعة المفضية إلى الشرك دقه وجله.

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 136.

(2) سورة التوبة، الآية: 18.

فإن هذا هو أصل الدين وحقيقة دين المرسلين وتوحيد رب العالمين.

وقد غلط في مسمى التوحيد طوائف من أهل النظر والكلام من أهل الإرادة والعبادة حتى قلبوا حقيقته في نفوسهم، فطائفة ظنت أن التوحيد هو نفي الصفات بل نفى الأسماء الحسنى أيضا وسموا أنفسهم أهل التوحيد وأثبتوا ذاتًا مجردة عن الصفات ووجودًا مطلقا بشرط الإطلاق وقد علم بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول أن ذلك لا يكون إلا في الأذهان لا في الأعيان، وزعموا أن إثبات الصفات يستلزم ما سموه تركيبا، وظنوا أن العقل ينفيه كما قد كشفنا أسرارهم وبينا فرط جهلهم وما أضلهم من الألفاظ المجملة المشتركة في غير هذا الموضع.

وطائفة ظنوا أن التوحيد ليس إلا إقرارًا بتوحيد الربوبية وأن الله خالق كل شيء وهو الذي يسمونه توحيد الأفعال. ومن أهل الكلام من أطال نظره في تقرير هذا الموضع إما بدليل أن الاشتراك يوجب نقص القدرة وفوات الكمال وبأن استقلال كل من الفاعلين بالمفعول محال وإما بغير ذلك من الدلائل ويظن أنه بذلك قرر الوحدانية وأثبت أنه لا إله إلا هو وأن الإلهية هي القدرة على الاختراع ونحو ذلك، فإذا ثبت أنه لا يقدر على الاختراع إلا الله وأنه لا شريك له في الخلق كان هذا عندهم هو معنى قولنا: « لا إله إلا الله » ولم يعلم أن مشركي العرب كانوا مقرين بهذا التوحيد كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (1)، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (2)، وقال ابن عباس وغيره: «تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله ومع ذلك يعبدون غيره».

وهذا التوحيد هو من التوحيد الواجب لكن لا يحصل به كل الواجب ولا يخلص بمجرده عن الإشراك الذي هو أكبر الكبائر والذي لا يغفره الله بل لابد أن يخلص لله الدين والعبادة فلا يعبد إلا إياه ولا يعبد إلا بما شرع.

فيكون دينه كله لله والإله هو: المألوه الذي تألهه القلوب وكونه يستحق الإلهية مستلزمًا لصفات الكمال فلا يستحق أن يكون معبودًا محبوبًا لذاته إلا هو وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل. وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ

(1) سورة لقمان، الآية: 25.

(2) سورة يوسف، الآية: 106.

فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(1)، وليس المقصود بالآية ما يقوله من يقوله من أهل الكلام من ذكر دليل التمانع الدال على وحدانية الرب تعالى، فإن التمانع يمنع وجود المفعول، ولا يوجب فساده بعد وجوده وذلك يذكر في الأسباب والبدايات التي تجري مجرى العلل الفاعلات، والثاني يذكر في الحكم والنهايات التي تذكر في العلل التي هي الغايات كما في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فقدم الغاية المقصودة على الوسيلة الموصلة.

ثم إن طائفة ممن تكلم في تحقيق التوحيد على طريق أهل التصوف: ظن أن توحيد الربوبية هو الغاية، والفناء فيه هو النهاية وإنه إذا شهد ذلك سقط عنه استحسان الحسن واستقباح القبيح فآل بهم الأمر إلى تعطيل الأمر والنهى والوعد والوعيد ولم يفرقوا بين مشيئته الشاملة لجميع المخلوقات وبين محبته ورضاه المختص بالطاعات وبين كلماته الكونيات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر لشمول القدرة على كل مخلوق وكلماته الدينيات التي اختص بموافقتها أنبياؤه وأولياؤه.

فالعبد مع شهوده الربوبية العامة الشاملة للمؤمن والكافر والبر والفاجر، عليه أن يشهد ألوهيته التي اختص بها عباده المؤمنين الذين عبدوه وأطاعوا أمره واتبعوا رسله قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ (2) وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (3)، وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (4) إلخ.

ومن لم يفرق بين أولياء الله وأعدائه، وبين ما أمر به وأوجبه من الإيمان والأعمال الصالحات وبين ما كرهه ونهى عنه وأبغضه من الكفر والفسوق والعصيان، مع شمول قدرته ومشيئته وخلقه لكل شيء وإلا وقع في دين المشركين الذين قالوا: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ (5)، والقدر يؤمن به ولا يحتج به بل العبد مأمور أن يرجع إلى القدر عند المصائب ويستغفر الله عند الذنوب والمعايب كما قال تعالى:

(1) سورة الأنبياء، الآية: 22.
(2) سورة ص، الآية: 28.
(3) سورة الجاثية، الآية: 21.
(4) سورة القلم، الآية: 35.
(5) سورة الأنعام، الآية: 148.

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾[1]، ولهذا حجَّ آدم موسى عليهما السلام لما لام موسى آدم لأجل المصيبة التي حصلت لهم بأكله من الشجرة فذكر له آدم أن هذا كان مكتوبا قبل أن أخلق فحجَّ آدم موسى كما قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾[3]، قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

فهذا وجه احتجاج آدم بالقدر ومعاذ الله أن يحتج آدم أو من هو دونه من المؤمنين على المعاصي بالقدر، فإنه لو ساغ هذا لساغ أي يحتج إبليس ومن اتبعه من الجن والإنس ويحتج به قوم نوح وعاد وثمود وسائر أهل الكفر والفسوق والعصيان ولم يعاقب ربنا أحدًا، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار شرعًا وعقلًا ».

إلى أن يقول: « ومن أحكم الأصلين المتقدمين في الصفات والخلق والأمر فيميز بين المأمور المحبوب المرضي لله وبين غيره مع شمول القدر لهما، وأثبت للخالق سبحانه وتعالى الصفات التي توجب مباينته للمخلوقات وأنه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته: أثبت التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه كما نبه على ذلك في سورتي الإخلاص: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ ، ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، فإن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن. إذ كان القرآن باعتبار معانيه ثلاث أثلاث: ثلث توحيد، وثلث قصص، وثلث أمر ونهي ؛ لأن القرآن كلام الله. والكلام إما إنشاء وإما إخبار، والإخبار إما عن الخالق وإما عن المخلوق، والإنشاء: أمر ونهي وإباحة: فـ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فيها ثلث التوحيد الذي هو خبر عن الخالق وقد قال ﷺ: « **قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن** »، وعدل الشيء ـ بالفتح ـ يكون ما ساواه من غير جنسه كما قال تعالى: ﴿ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا ﴾[4]، وذلك يقتضي أن له من الثواب ما يساوى الثلث في القدر ولا يكون مثله في الصفة كمن معه ألف دينار وآخر معه ما يعدلها من الفضة والنحاس وغيرها.

ولهذا يحتاج إلى سائر القرآن ولا تغني عنه هذه السورة مطلقًا كما يحتاج من معه نوع

---

(1) سورة غافر، الآية: 55.
(2) سورة الحديد، الآية: 22.
(3) سورة التغابن، الآية: 11.
(4) سورة المائدة، الآية: 95.

من المال إلى سائر الأنواع إذ كان العبد محتاجًا إلى الأمر والنهى والقصص وسورة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فيها التوحيد القولي العملي الذي تدل عليه الأسماء والصفات، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾، وسورة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فيها من التوحيد القصدي العملي كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾، وبهذا يتميز من يعبد الله ممن يعبد غيره وإن كان كل واحد منهما يقر أن الله رب كل شيء ومليكه ويتميز عباد الله المخلصون الذين لم يعبدوا إلا إياه ممن عبدوا غيره وأشركوا به أو نظروا إلى القدر الشامل لكل شيء فسوى بين المؤمنين والكفار كما كان يفعل المشركون من العرب ؛ ولهذا قال ﷺ: « **إنها براءة من الشرك** ». أهـ.

ونكتفي بهذا القدر (الفتاوى ـ التدمرية ـ اقتضاء الصراط المستقيم) لبيان خطأ المتكلمين والصوفية في تقرير التوحيد مما يتضح منه بجلاء أن الصوفية: جبرية مرجئة، وأن الأشاعرة جبرية مرجئة أيضًا، ولما كان لهاتين الطائفتين السطوة والتوجيه الفكري للعامة والخاصة من المسلمين منذ القرن الخامس الهجري تقريبًا فإننا ندرك من هذا، لماذا تمكنت جرثومة الجبر والإرجاء من التفكير الإسلامي خلال هذه القرون ولماذا هي متمكنة الآن من هذا التفكير.

ولهذا يلخص ابن القيم(1) مقالات الطوائف المخالفة للسنة فيقول:

« وقد تقسمت الطوائف (التوحيد) وسمى كل طائفة باطلهم توحيدًا:

فأتباع أرسطوا وابن سينا والنصير الطوسي:

عندهم التوحيد إثبات وجود مجرد عن الماهية والصفة بل هو وجود مطلق لا يعرض لشيء عن الماهيات ولا يقوم به وصف و لا يتخصص بنعت، بل صفاته كلها سلوب وإضافات، فتوحيد هؤلاء هو غاية الإلحاد والجحود والكفر، وفروع هذا التوحيد إنكار ذات الرب والقول بقدم الأفلاك، وأن الله لا يبعث من في القبور، وأن النبوة مكتسبة وأنها حرفة من الحرف كالولاية والسياسة، وأن الله لا يعلم عدد الأفلاك ولا الكواكب ولا يعلم شيئًا من الموجودات المعينة البتة، ولا يقدر على قلب شيء من أعيان العالم ولا شق الأفلاك ولا خرقها، وأنه لا حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي ولا جنة ولا نار، فهذا توحيد هؤلاء.

وأما الاتحادية: فالتوحيد عندهم أن الحق المنزه هو عين الخلق المشبه وأنه سبحانه هو

(1) مدارج السالكين جـ 3، ص 447 -449.

عين وجود كل موجود وحقيقته وماهيته وأنه آية كل شيء وله فيه آية تدل على أنه عينه، وهذا عند محققيهم من خطأ التعبير بل هو نفس الآية ونفس الدليل ونفس المستدل ونفس المستدل عليه، فالتعدد بوجود اعتبارات وهمية لا بالحقيقة والوجود فهو عندهم عين الناكح وعين المنكوح وعين الذابح وعين المذبوح وعين الآكل وعين المأكول وهذا عندهم هو السر الذي رمزت إليه هوامش الدهور الأولية ورامت إفادته الهداية النبوية كما قال محققهم وعارفهم (ابن سبعين). ومن فروع هذا التوحيد أن فرعون وقومه مؤمنون كاملوا الإيمان عارفون بالله على الحقيقة، ومن فروعه أن عباد الأصنام على الحق والصواب وأنهم أنما عبدوا عين الله سبحانه لا غيره، ومن فروعه أن الحق أن لا فرق في التحريم بين الأم والأخت والأجنبية ولا فرق بين الماء والخمر والزنا والنكاح، الكل من عين واحدة بل هو العين الواحدة وإنما المحجوبون عن هذا السر قالوا: هذا حلال وهذا حرام، نعم هو حرام عليكم لأنكم في حجاب عن حقيقة هذا التوحيد، ومن فروعه أن الأنبياء ضيقوا على الناس الطريق وبعدوا عليهم المقصود. والأمر وراء ما جاؤوا به ودعوا إليه.

وأما الجهمية: فالتوحيد عندهم إنكار علو الله على خلقه بذاته واستوائه على عرشه وإنكار سمعه وبصره وقوته وحياته وكلامه وصفاته وأفعاله ومحبته ومحبة العباد له، فالتوحيد عندهم هو المبالغة في إنكار التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه.

وأما القدرية: فالتوحيد عندهم هو إنكار قدر الله وعموم مشيئته للكائنات وقدرته عليها ومتأخروهم ضموا إلى ذلك توحيد الجهمية فصار حقيقة التوحيد عندهم: إنكار القدر وإنكار حقائق الأسماء الحسنى والصفات العلى وربما سموا إنكار القدر والكفر بقضاء الرب وقدره عدلًا وقالوا: نحن أهل العدل والتوحيد.

وأما الجبرية (الأشاعرة): فالتوحيد عندهم هو تفرد الرب تعالى بالخلق والفعل وأن العباد غير فاعلين عن الحقيقة ولا محدثين لأفعالهم ولا قادرين عليها وأن الرب لم يفعل لحكمة ولا غاية تطلب بالفعل وليس في المخلوقات قوى وطبائع وغرائز وأسباب، بل ما ثَمَّ إلا مشيئة محضة ترجح مثلا على مثل بغير مرجح ولا حكمة ولا سبب البتة.

وأما صاحب "المنازل" [1] ومن سلك سبيله فالتوحيد عندهم نوعان:

أحدهما: غير موجود ولا ممكن وهو توحيد العبد ربه فعندهم ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد.

(1) الهروي.

الثاني: توحيد صحيح وهو توحيد الرب لنفسه و كل من ينعته سواه فهو ملحد.

فهذا هو توحيد الطوائف ومن الناس إلا أولئك. والله سبحانه أعلم ». انتهى.

خاتمــــة

وفي الختام، فإننا نرى ويرى معنا القارئ أن معنى قضية توحيد الألوهية في واقعنا المعاصر أو العبادة التي هي التوحيد الذي أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب والتي تعني: الاستسلام لله وحده وقبول حكم الله ورفض ما سواه، أن هذه القضية يجب أن تكون هي قضية القضايا ومحور الصراع مع الباطل، وكيف لا تكون والعبادة هنا تعني: « التزام شريعة الرسول جملة وعلى الغيب»، وكيف لا تكون وهو المعنى المجرد الراجع إلى أصل الدين... وكيف لا تكون وأغلب ألفاظ العبادة في القرآن هي من هذا النوع !.

يقول النسفي في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (1): « فاعبدوا ربكم وحده. قال ابن عباس: «كل عبادة في القرآن فهي توحيد». احتج عليهم بأنه خالقهم وخالق من قبلهم، لأنهم كانوا مقرين بذلك فيقال لهم: إن كنتم مقرين بأنه خالقكم فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ».

ويقول القرطبي في تفسير نفس الآية: « العبادة هنا: توحيده والتزام شرائعه، ويعني كلمة (هنا) لذكر كلمة (الناس) حيث الخطاب للناس كافة المؤمن والكافر، والكافر لا يخاطب بالفروع وإنما يدعى إلى الأصل أولاً ».

من هنا تأتي أهمية إبراز هذه القضية وذلك بسبب علاقتها بواقع وحياة المسلمين اليوم والنجاة من هذه الفتنة التي عمت ولا يمكن إدراكها إلا بأن ينتبه الغافل من غفلته، وأن يصحوا النائم من غفوته قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا شراء إلا من أتى الله بقلب سليم **والقلب السليم يحتكم في أمره كله ـ صغيره وكبيره ـ إلى الله رب العباد.**

يقـــول تعـــالى: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾ (2)، **هنا لا يستطيع معاند أن يقول بأن الله** يأمرنا بمعرفته فقط كما يقول المبطلون المرجفون، ولا يستطيع أن يتبجح منافق ويقول: إن الله أراد بهذه الآية التصديق وليس الحكم بما أنزل الله كما يكرر ذلك اليوم أحبار ينتسبون إلى

---

(1) سورة البقرة، الآية: 21.

(2) سورة المائدة، الآية: 49.

الإسلام ويدّعون أنهم من علماء المسلمين ويضللون العامة بقولهم: إن قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[1]، ليست في الحقيقة خطابًا موجهًا إلى المسلمين بل لليهود والنصارى فقط !!! ويستدلون على ذلك بأسباب النزول !!! بينما يفقه طالب العلم المبتدئ أن (من) تفيد العموم !! ولكن حكمة الله سبحانه تقتضي أن يكون هناك (أحبار) في كل عصر، و (منافقون) في كل زمان وزنادقة في كل أمة يحرفون الكلم عن مواضعه ويشترون به ثمنًا قليلًا، ألا وهو البقاء في مناصبهم الزائلة لا محالة.

لذلك سوف نتوجه بالنصح في النهاية ليس إلى (الأحبار) فهم في ضلالهم غارقون، بل إلى المسلمين الصادقين، فمن كان مدركًا لأهمية هذه القضية فليحمد الله ويعمل على دعوة إخوانه الغافلين إليها، ومن كان غافلاً فليصحُ من غفلته ويقرأ معنا الكلمة التالية الموجزة التي تخاطب القلب والعقل معًا والتي نأمل أن تكون قد أوضحت مضمون هذا البحث بأسلوب سهل وواضح.

أخي المسلم :

يقول تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾[2].

في هذه الآيات الواضحة والحاسمة يعرض لنا القرآن الكريم قضية الحكم والشريعة والتقاضي ـ ومن ورائها قضية الألوهية، والتوحيد والإيمان ـ **وذلك من خلال الإجابة عن هذا السؤال:** أيكون الحكم والشريعة والتقاضي حسب مواثيق الله وعقوده وشرائعه التي استحفظ عليها أصحاب الشرائع السماوية واحدة بعد الأخرى وكتبها على الرسل وعلى من يتولون الأمر من بعدهم ليسيروا على هداهم ؟ أم يكون ذلك كله للأهواء المتقلبة والمصالح التي لا ترجع إلى أصل ثابت من شرع الله، والعرف الذي يصطلح عليه جيل أو أجيال ؟

وبتعبير آخر: أتكون الألوهية والربوبية والقوامة لله في الأرض وفي حياة الناس؟

---

(1) سورة المائدة، الآية: 44.

(2) سورة المائدة، الآيتان: 49-50.

أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به الله؟

والله سبحانه وتعالى يقول: إنه هو الله لا إله إلا هو، وإن شريعته التي سنها للناس بمقتضى ألوهيته لهم وعبوديتهم له، وعاهدهم عليها وعلى القيام بها، هي التي يجب أن تحكم هذه الأرض، وهي التي يجب أن يتحاكم إليها الناس، وهي التي يجب أن يقضي بها الأنبياء ومن بعدهم من الحكام.

والله سبحانه وتعالى يقول: إنه لا هوادة في هذا الأمر، ولا ترخص في شيء منه، ولا انحراف عن جانب ولو صغير، وإنه لا عبرة بما تواضع عليه جيل، أو اصطلح عليه قبيل، مما لم يأذن به الله في قليل ولا كثير.

والله سبحانه وتعالى يقول: إن المسألة ـ في هذا كله ـ مسألة إيمان أو كفر وإسلام أو جاهلية، وشرع أو هوى. وأنه لا وسط في هذا الأمر ولا هدنة ولا صلح، فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله ـ لا يخرمون منه حرفًا ولا يبدلون منه شيئًا ـ والكافرون الظالمون الفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله.

وإنه إما أن يكون الحكام قائمين على شريعة الله، فهم في نطاق الإيمان، وإما أن يكونوا قائمين على شريعة أخرى مما لم يأذن الله، فهم الكافرون الظالمون الفاسقون.

وإن الناس إما أن يقبلوا من الحكام والقضاة حكم الله وقضائه في أمورهم فهم مؤمنون وإلا فما هم بالمؤمنين... ولا وسط بين هذا الطريق وذاك، ولا حجة ولا معذرة، ولا احتجاج بمصلحة.

فالله رب الناس يعلم ما يصلح للناس: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (1).

ويضع شرائعه لتحقيق مصالح الناس الحقيقية. وليس أحسن من حكمه وشريعته حكم أو شريعة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (2).

والخطاب والتكليف موجه إلى المحكومين والحكام... والمناط هو الحكم بما أنزل الله من الأحكام، وقبول هذا الحكم من المحكومين، وعدم ابتغاء غيره من الشرائع والأحكام؛ لذلك فهي قضية الكفر أو الإيمان، وقضية الجاهلية أو الإسلام.

---

(1) سورة الملك، الآية: 14.
(2) سورة المائدة، الآية: 50.

والجاهلية ليست فترة تاريخية، وإنما حالة توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع ـ في أمر سواء كان ذلك في القوانين أو في الشعائر أو في الأخلاق والقيم ـ إلى أهواء البشر ـ لا إلى منهج الله وشريعته للحياة ويستوي أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد، أو أهواء طبقة، أو أهواء أمة، أو أهواء جيل كامل من الناس فكلها ـ ما دامت لا ترجع إلا شريعة الله ـ أهواء.

يشرع فرد لجماعة فإذا هي جاهلية ؛ لأن هواه هو القانون... أو رأيه هو القانون لا فرق إلا في العبارات.

يشرع ممثلو الطبقات وجميع القطاعات في الأمة لأنفسهم فإذا هي جاهلية ؛ لأن أهواء الناس ـ الذين لا يتجردون أبدًا من الأهواء ـ ولأن جهل الناس ـ الذين لا يتجردون أبدًا من الجهل ـ هو القانون أو لأن رأى الشعب هو القانون، فلا فرق إلا في العبارات.

ويشرع خالق الأفراد، وخالق الجماعات، وخالق الأمم والأجيال، للجميع، فإذا هي شريعة الله التي لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد، لا لفرد ولا لجماعة ولا لدولة ولا لشعب ولا لجيل من الأجيال ؛ لأن الله رب الجميع والكل لديه سواء ؛ ولأن الله يعلم حقيقة الجميع ومصلحة الجميع، فلا يفوته ـ سبحانه ـ أن يرعى مصالحهم وحاجاتهم بدون تفريط ولا إفراط.

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم، وألا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه، والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء.

وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية، فلن يستقيم له ميزان، ولن يتضح له منهج، ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل، ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح.

وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو مائعة في نفوس الجماهير من الناس، فما يجوز أن تبقى غامضة ولا مائعة في نفوس من يريدون أن يكونوا (مسلمين) وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم.

قضية واحدة... قضية الألوهية... قضية التوحيد... قضية الحكم بما أنزل الله... لتتوحد الألوهية، ويتحقق التوحيد....

ندعو الله أن يزداد الذين آمنوا إيمانا وأن تقام الحجة على المرتابين والمتشككين، ونسأل الله أن يثيب علماء أهل السنة والجماعة المخلصين خير الثواب، وأن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن ينفع بهم أمة الإسلام ويهدى بهم وبما يقولونه من قول الحق كل ضال إنه سبحانه وتعالى سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.